724

روايات عبير

WWW.REWITY.COM

مـــرمـــوريـــة

Elizabeth Mc Aneny

خِداعُ امرأة

الأصليّة

روايات عبير

«خداعُ امرأة»

مرضتْ عالمةُ الطبيعة، وكانَ ذلك عائقًا للالتحاق بالبعثة البحْثية التي كانت تُوشك أن يبدأ رحيلها إلى غابات «الأمازون» وأحْراجها، وذلك لمواصلة أبحاثها. عَرَضتْ عليها ابنةُ أخيها أن تسافر بدلاً منها منتحلةً اسمها وخاصة أنها قد نشأتْ بين والديها العالميْن اللذين تنقّلا بها منذ ولادتها إلى أماكن غريبة وخَطرة في جميع أنحاء العالم، مما جَعلها تعتادُ حياةَ الغابات ومجابهة الأخطار. اكتشفها أحدُ أفراد البعثة وعَرَف سرَّها فماذا حدث؟ هل عاونها وحَفظ سرَّها؟ وهل أتمّت مهمةَ عمتها بنجاح، أم ماذا؟

هذا ما سوْف تعلمه - عزيزي القارئ - من خِلال الأحْداث وعجائب المفاجآت التي تعرّضتْ لها بطلةُ هذه الرواية.

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.
سوريا	100 ل.
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
المغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

ISBN 995338059 -7
9 789953 380599

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Errant Daughter

تأليف
Elizabeth Mc Aneny

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

www.rewity.com
مـــرمـــوريـــة

خداع امرأة

(724)
الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون : **00 961 9 212 666** – فاكس : **00 961 9 212 665**
ص.ب **374** جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 5 -

- 1 -

ترنحت «تينا دونيللي» تحت ثقل المشتريات التي تحملها، وأغلقت وراءها الباب قبل أن تلقي بالرزم العديدة على أحد المقاعد القريبة. وتنهدت وهي تحمد الله؛ لأن عمتها «كريس» أصرت على عدم الانتقال إلى هذا البيت الجديد إلا بعدما تأكدت تركيب التدفئة المركزية فيه. وبدأ الدفء يذيب الجليد الذي علق بشعرها الذهبي المائل إلى الاحمرار، والذي أبى أن يستقر تحت قبعتها المصنوعة من الفراء. مرة أخرى، ألقت نظرة على مشترياتها قبل أن تحملها وتسرع بها إلى المطبخ، لتعد العشاء لها ولعمتها.

وأخذت تترنم بقطعة موسيقية وهي تقوم بعملها، فهي تحب منزلهما المريح، وتشعر بالإعجاب والتقدير لهذه الآلات الحديثة التي توفر عليها الوقت، وتشعر بالسلام والراحة وسط هذا الديكور الرائع الذي يحيط بها. وقبل أن تنتقلا إلى هذا المنزل، تركت لها عمتها حرية الاختيار لتنظيم المطبخ بالطريقة التي تعجبها، في حين انهمكت هي في رسم وتنفيذ الديكور لما تبقى من غرف البيت، الذي يتكون من غرفة جلوس كبيرة، وغرفتي نوم.

وغرقت «تينا» في أكوام الكتيبات والإعلانات الخاصة بأدوات المطبخ، حتى إذا انتهت هي وعمتها من تأثيث البيت، كانت كل منهما معجبة تمامًا بالجهد المبذول. أجالت «تينا» بصرها في غرفة الجلوس التي تغير شكلها بعدما غُطِّيت أرضيتها ببساط أخضر بلون الغابات زينته عمتها في الوسط بجلد نمر، وصاحت مبهورة:

– صدقيني يا عمتي لو لم تكوني متعلقة بوظيفتك، لتمكنت من جمع ثروة ضخمة من تصميم الديكورات. لقد أحسنت عرض كنوزك وتحفك بطريقة رائعة! وابتسمت عمتها سعيدة بهذا الإطراء، في حين أخذت «تينا» تشير إلى التحف الغريبة التي أحضرتها عمتها «كريس دونيللي» من البعثات المتكررة التي اشتركت فيها. هذان شمعدانان من النحاس الأصفر، تحولا ببراعة إلى مصباحين حديثين غاية في الروعة على منضدة صغيرة من الخشب الهندي، تجمعت تحتهما في تنظيم دقيق مجموعة عناقيد كريستال وقواقع دقيقة غريبة. اكتشفتها العمة في جزيرة من جزر المرجان في البحار الجنوبية.

وعلى أحد الجدران علقت مرآة في إطار ذهبي، تعكس صورة لأحد المساجد، وعلى الحائط الآخر بعض اللوحات المرسومة بيد مشاهير الفنانين، وبعض التماثيل الدقيقة – وكلها من «البرازيل» – توزعت بطريقة فنية تنعكس عليها الأضواء التي تدخل من النوافذ الطويلة المكسوّة بالمخمل، والتي تنسدل عليها ستائر من حرير «تايلاند». وفي فجوة في الجدار وضعت تمثالا نصفيًا من الخشب أحضرته من «النمسا»، إلى جوار شجرة على شكل تنين من الوبر المنقوش مثبتة إلى نموذج مصغر لإحدى قدور ساحرات الغابات. غرفة مثيرة، غريبة، لكنها تعبر بحق عن شخصية هذه المرأة التي صممتها، والتي تعيش حياة تتبدل باستمرار.

كانت «كريس دونيللي» معجبة جدًا بنجاح ابنة أخيها في تصميم المطبخ وتنظيمه، عكس «تينا» التي لم تعجب به للوهلة الأولى، لكنها عادت ووجدت أن أرضيته الرخامية البيضاء تتلاءم مع هذا القرميد الذي يكسو

الجدار فوق الحوض، وأن صف القدور النحاسية، وفرن الطهي الذي تعلوه أيضًا قبة من النحاس أضفيا لمسة جمال مميزة على الغرفة.

لكن، وبعد مرور ستة أشهر على انتقال المرأتين إلى المنزل، انتهت بهجة الإثارة التي نتجت من هذا التغيير الجديد، وأصبحت المناظر مألوفة وعادية. لاحظت «تينا» بدء دلائل الحيرة التي تصيب «كريس» كلما حثتها ساقاها على الرحيل، ابتسمت وهي تضع طبقين على المائدة. ففي كل مرة كانت عمتها ترتجف وهي تحدثها بخجل عن مشروع رحلتها المقبلة، لكن «تينا» كانت تقابل كلماتها بهمهمات الإعجاب، إلى الدرجة التي جعلت «كريس» لم تتصور قط أن الحديث لم يكن مفاجأة لها، ولم يخطر لها أنه في خلال أسابيع القلق التي كانت تعاني فيها تأنيب الضمير، لتركها ابنة شقيقها الصغرى وحيدة في «لندن»، في حين تتجول هي في غابات «إفريقيا»، أو تتسلق جبلا في «بيرو»، وتكون «تينا» في تلك الفترة تعد لها معدات الرحلة لتتأكد أن كل ما تحتاج إليه في رحلتها سيكون جاهزًا في لحظة الاعتراف، التي تأتي غالبًا قبل أيام قليلة من موعد الرحيل. «تينا» تعرفها جيدًا إلى الدرجة التي تجعلها تتوقع تحركاتها قبل حدوثها بأسابيع، بل ربما قبل أن تكون «كريس» نفسها اتخذت قرارها النهائي بعد!

وبالفعل، كانت «تينا» تعرفها جيدًا... تعرفها وتحبها، بل إنها فخورة بهذه العمة النحيلة الرقيقة، التي ما زالت تحتفظ بشبابها كاملا، على الرغم من اقترابها من الأربعين، والتي استطاعت بكفاءتها العظيمة أن تحتل مكانة عالية في ميدان علم النبات، بعدما تخصصت في اكتشاف النباتات الغريبة في الأماكن البعيدة والمجهولة من بقاع العالم. و«كريس»

www.rewity.com

تعمل حاليًا في حدائق «كيو» الملكية، وتشترك في بعثات علمية إلى أماكن خطيرة وصعبة، متحدية الأخطار، بحثًا عن نبات جديد تكتشفه، أو تضيفه إلى المجموعة النادرة في «كيو».

وكانت «تينا» المساعدة الأولى لها في العمل، لكنها كانت -على عكسها- تحب الاستقرار وتكره السفر. واستطاعت عمتها أن تحسن تدريبها، وتعليمها كل ما اكتسبته من خبرة، حتى بدأت «تينا» تثير الإعجاب في محيط العمل، وتشق طريقها في الدوائر العلمية الكبرى.

تركت «تينا» المطبخ، وألقت نظرة فاحصة على غرفة الجلوس المريحة الدافئة، قبل أن تعبر الغرفة إلى النافذة لتلقي نظرة إلى الخارج، محاولة اختراق برودة تلك الليلة من ليالي شهر آذار (مارس). رأت الباحات المضيئة تزدحم بركاب يرتدون الملابس الثقيلة، ورأت «تينا» أيضًا رذاذ المياه القذرة التي نثرتها السيارات المسرعة على ملابس سيّئي الحظ من المساكين العائدين سيرًا على الأقدام إلى منازلهم. ألقت نظرة سريعة على ساعتها، وبدا عليها القلق. فكثيرًا ما تُدعى عمتها إلى الاشتراك في لجنة من لجان العمل في اللحظة الأخيرة قبل عودتها، لكنها اعتادت أن تتصل بها لتنبئها بتأخرها عن موعد العشاء. ولم يكن من عادة «تينا» أن تعود مع عمتها إلى المنزل، بل كانت تسبقها دائمًا بنحو ساعة حتى تتمكن من إعداد طعام العشاء. وعندما وصلتا إلى «كيو» هذا الصباح، استدعى الرئيس «كريس» لمقابلته، وكانت هي المرة الأخيرة التي رأتها فيها هذا اليوم. وقطبت حاجبيها. فـ«كريس دونيللي» تستطيع أن تتسلق الجبال، وتصطاد الوحوش، وتواجه المجهول في الأراضي التي لم تكتشف بعد، لكنها تصبح طفلة عاجزة في خضم حركة المرور في

شوارع «لندن». عضت «تينا» على شفتها وهي تتذكر حيرة عمتها وترددها لدى عبور الطرق المزدحمة. مدت يدها إلى الهاتف، وقبل أن ترفع السماعة، مزق رنينه المفاجئ سكون الغرفة. ردت بشوق:

- مرحبًا. هنا «تينا دونيللي».

- «تينا». وعرفت الصوت على الفور، صوت رجل واثق النبرات، إنه الدكتور «أليكس ماكسويل» صديق عمتها. فسألته بسرعة:

- «أليكس». هل تعرف أين عمتي «كريس»؟ إني قلقة عليها. تأخرت عن موعدها، وأنت تعرف خوفها من حركة المرور! أجاب «أليكس ماكسويل» غاضبًا:

- طبعًا أعرف. حاولت مرارًا أن أحذرها، لكنها تضحك دائمًا من حرصي على سلامتها، ولعلها تعترف الآن بأنني كنت على صواب!

وصاحت «تينا» بصوت قلق:

- لعلها تعرف الآن؟ «أليكس» ماذا تقصد؟ هل تحاول أن تخبرني بأن عمتي أصابها مكروه؟ فأجاب بسرعة محاولا تهدئتها:

- اطمئني. لا داعيَ للقلق. إنه حادث بسيط. صدمتها سيارة على باب المستشفى تقريبًا، ومن حسن الحظ أنني كنت في مناوبتي. طبيب الطوارئ يعرف أنها صديقتي. فاتصل بي وأخبرني. صاحت «تينا» بخوف:

- أرجوك، أخبرني ماذا حدث بالضبط، وما مدى إصابتها؟ قاطعها «أليكس» بصوت نافد الصبر:

- كُسرت يدها، ولكن حظها من السماء. على هذه المرأة أن تجد شخصًا يعتني بها ويحميها من نفسها. وعليه أولا أن يحطم عنادها! ابتسمت

«تينا» على الرغم من اضطرابها عندما شعرت بالغضب والقلق في صوت «أليكس». عرفت منذ سنوات أنه يحب عمتها، لكن «كريس» كانت تعلن دائمًا أنه ليس من العدل أن تتزوج رجلا سيجد نفسه وحيدًا بعد فترة وجيزة من الحياة المشتركة. فهي امرأة مستقلة ترفض التقيد بالزوج والبيت. فشعرت «تينا» بالعطف عليه، وقالت مؤكدة:

– أعرف ما تشعر به يا «أليكس»، وأنا أوافقك على طول الخط! ربما في يوم ما، وإذا لم تتعب من الانتظار، تشعر «كريس» بأنك على حق، لكنها الآن تحتاج إلى الراحة والهدوء. هل أستطيع أن أحضر إلى المستشفى لأعود بها، أم أن الصدمة شديدة عليها، ولن تستطيع الحركة؟ وانتظرت الرد بقلق. فعلى الرغم من أن إصابة عمتها خفيفة كما يقول، إلا أنها لا تطيق أن تراها ملقاة جريحة ووحيدة في المستشفى! زمجر الدكتور «أليكس» قائلا:

– صدمة؟... راحة؟ هدوء؟ حولت المستشفى إلى دار للمجانين في خلال الوقت القليل الذي مكثت فيه هناك. اقترحت عليها أن تبقى ليلة تحت المراقبة، لكن زئيرها المتواصل كان كافيًا ليقنعني بضرورة عودتها إلى البيت، من أجل راحة المرضى الآخرين. وتنهد وهو يواصل كلامه:

– عمتك، يا عزيزتي، امرأة في غاية العناد! ضحكت «تينا» ضحكة ناعمة، وواصل كلامه بعد قليل منهيًا الحديث:

– «تينا». سنصل إليك بعد ربع ساعة. انتهت فترة عملي الآن. سأحضر عمتك معي في سيارتي إلى المنزل. شكرته بحرارة، وأكدت له قبل أن ينهي المكالمة أنه سيجد عشاءً فاخرًا في انتظاره.

* * * * *

كان الثلاثة يجلسون في استرخاء، بعد عشاء شهي، في غرفة الجلوس المريحة، يحتسون القهوة. بدت «كريس» شاحبة اللون، لكنها محتفظة بحيويتها التامة. جلست «تينا» إلى جوارها على الأريكة البنية، وأمامها «أليكس» على مقعد وثير، وعلى شفتيه ابتسامة رجل يشعر بالاكتفاء بعد عشاء فاخر. أخذ ينظر إليهما في كسل من فوق حافة نظارته، وما لبث أن قال:

– ترى، هل لاحظتما الشبه الشديد بينكما؟ من يراكما يعتقد أنكما توأمان! فضحكت «كريس» وقالت:

– هذه كلمات مؤثرة يا عزيزي . هل تعرف أنني أحب فيك هذه الشهامة؟!

– أنا جاد في قولي! لكما البشرة الصافية ذاتها، ولون الشعر الأحمر الذهبي الفريد ذاته، على الرغم من أنكما تصففانه بطريقة مختلفة، والعيون الخضراء غير العادية ذاتها، المنحرفة بجاذبية طاغية حتى الطول والقوام متطابقان تمامًا! وانتقل بعينيه من واحدة إلى أخرى، ثم نظر، برقة، إلى «كريس» وقال:

– الاختلاف الوحيد بينكما، يكمن في طبيعة كل منكما. «تينا» تبدو كطفل مشرق لحظة استيقاظه من النوم، أما أنت يا عزيزتي فتجمعين كل إغراء الأنثى الناضجة وغموضها. زجرته «كريس» بحدة بعدما احمر وجه «تينا» خجلا:

– توقف عن هذه المداعبات يا«أليكس». أخجلتَ الطفلة. إذا لم تتصرف بأدب فعليك بالعودة إلى بيتك. هل نسيت أني مريضة؟ كطبيب أنت تعرف جيدًا أن عليك ألا تضايقني! تبادل «أليكس» و «تينا» النظرات،

www.rewity.com

وأغرقا في الضحك. فمنذ ساعة واحدة، ثارت «كريس»؛ لأن «تينا» تجرأت وطلبت منها الاستكانة والراحة، فأصرت على أنها ليست مريضة، ولا تشعر حتى بأن ذراعها كُسرت، ورفضت بشدة أن تعامل معاملة المرضى. احمر وجه «كريس» خجلا لما تعنيه ضحكاتهما وحاولت أن تجد مخرجًا من هذا المأزق فقالت:

– على أي حال هناك أمور يجب أن نناقشها. لقد غير الحادث خططي تمامًا! ونظرت إليهما لتتأكد أنهما يصغيان إليها وأضافت:

– بحق السماء، كيف يمكن أن أرحل بعد أسبوع إلى «الأمازون» بهذه اليد المكسورة؟ وخيم صمت مفاجئ بعد هذا السؤال. ثم، صرخ «أليكس» و «تينا» في وقت واحد:

– ولكن... هذا مستحيل! زمجر «أليكس»، ورددت «تينا»:

– «الأمازون» «كريس»؟! شعرت «كريس» بالسرور للأثر الذي أحدثته، وقالت:

– إنها آخر رحلة عظيمة على الأرض وقد وقع عليَّ الاختيار لأشترك فيها! وقبل أن يلتقط أحدهما أنفاسه ليقاطعها، واصلت كلامها بحماسة:

– إحدى الصحف اليومية الكبرى تموّل رحلة إلى نهريْ «النيغرو»، و«أورينوكو» لتختبر السفينة الطائرة في تلك البقاع. ويضم المشروع بعض الجغرافيين والمصورين، وأحد علماء الطبيعة والنبات. كاد يغمى عليَّ من الانفعال عندما عرضوا عليَّ هذه الفرصة. تصوروا رحلة طولها أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر في أرض لم يطأها رجل أبيض حتى الآن، فضلا على أنواع من النباتات الغريبة سنجمعها. ثم أفسدت كل هذا

بكسر ذراعي. ونظرت باحتقار إلى الضمادة التي تربط بها ذراعها، قبل أن تتجه إلى «أليكس» وتسأله بصوت ضعيف، بحثًا عن بصيص من الأمل:

– هل هناك أي احتمال في أن أستطيع القيام بهذه الرحلة؟ وإذا كانت «تينا» شعرت في وقت من الأوقات بأي شك في مشاعر «أليكس» تجاه «كريس»، فقد تبدد تمامًا وهي تنظر إلى وجهه الهادئ لترى تأثير كلمات عمتها فيه. ورأت الغضب يتصارع – في نفسه – مع العطف، قبل أن يجيب بحزم مغلف بقلق حقيقي:

– لا أمل يا «كريس»... لا أمل! وكانت «كريس» تعرف هذه الإجابة مسبقًا، لكنها كانت تبحث عن شعاع أمل، فظللت وجهها الجميل سحابة من الحزن وخيبة الأمل عندما سمعت رده. رأى «أليكس» هذا، فامتلأ صوته بالحنان والعطف وقال مخففًا عنها:

– «كريس» يا حبي لا تحزني، لابد وأن تأتي فرص أخرى. هذه الرحلة التي تسمينها آخر رحلة عظيمة على الأرض، لابد وأن تأتي أفضل منها في خلال الأشهر المقبلة. فقالت «كريس» بصوت ضعيف:

– ربما.. ولكن لن يكون هناك القائد «كارامورو»، الرجل الذي تمنيت دائمًا أن أصحبه في إحدى رحلاته. وها هي الفرصة تهرب مني بعدما حصلت عليها! فصاح «أليكس» في دهشة:

– ومن هو «كارامورو» هذا؟ انحنت «كريس» إلى الأمام، وتحدثت بصوت أذهل «تينا». كانت نبراتها تحمل من الاحترام والتقدير، ما لم تتصور «تينا» أن تحمله «كريس» لأي رجل في العالم. حيث قالت:

– إنه السيد «رامون فيغاس»، برازيلي من أصل إسباني، وله خبرة

واسعة في ميدان اكتشاف الغابات، كما أنه أكثر الرجال جرأة في قيادة البعثات بين الأدغال، ومن الأشخاص المعروفين في العالم. كانت عائلته واحدة من أولى العائلات الإسبانية التي استقرت في «البرازيل» منذ أجيال عديدة. اكتسب أكثر معلوماته عن الأدغال من أبيه الذي كان مستكشفًا شهيرًا هو الآخر. وأعتقد أن «رامون» انصرف إلى شؤون أسرته بعد وفاة والده. أصبح هو كبير العائلة، فندرت رحلاته، وهذه واحدة من الرحلات النادرة، وكم كنت أتوق إلى الاشتراك فيها! ورد «أليكس»:

– يبدو أنه رجل عظيم حقًا، ولكن هذا الكلام لا يفسر لنا حتى الآن معنى اسم «كارامورو»! فضحكت «كريس» وقالت:

– لا، إن له تفسيرًا، فكلمة «كارامورو» تصور شخصية «رامون فيغاس» أكثر من أي كلام أستطيع أن أصفه به، أطلق عليه سكان الأدغال اسم «كارامورو»، ومعناه الرجل الناري، أو رجل من نار. أنا أصدق تمامًا ما تصفه به أساطير الوطنيين هناك. إن له بالفعل شخصية بركانية!

وقاطعها «أليكس»:

– إذن... ربما كان من حسن الحظ أنك لن تشتركي في هذه الرحلة، فوجود اثنين بهذا الطبع الناري والقاسي في مكان واحد مثير للمتاعب، ولذلك يا قطتي العزيزة، من الأفضل أن تمكثي في المنزل! ورمقته «كريس» بنظرة عنيفة غاضبة. ثم تنهدت يائسة وقالت:

– حسنًا. كلما أسرعت في الاتصال بالمدير لأخبره بما حدث، كان ذلك أفضل، لا شك في أنه سيصاب بخيبة أمل شديدة. قضيت معه طوال اليوم نضع الخطوط النهائية لخطة البحث عن حقيقة الإشاعات التي تدور حول طبيب وطني يعالج الناس بالأعشاب في «الأمازون»، وقد

نجح في شفاء الوطنيين من مرض «النقرس» بمرهم مستخرج من نبات مجهول. وكنت مكلفة بإحضار هذا النبات؛ لذا عليَّ أن أسارع لإخباره بما حدث حتى يستطيع أن يجد شخصًا آخر يحل مكاني!

وخيم عليهم سكوت عميق، فقد كانت «كريس» على الرغم من كل شيء، تشعر بالضيق والألم لفكرة نقل خبر الحادث إلى السير «هانيمان»، عالم النبات الشهير الذي ساعدها على الوصول إلى مكانتها العلمية الحالية.

أما «أليكس» فقد صمت، تعبيرًا عن تمسكه برأيه بعدم قدرتها على السفر، وإن كان ضيقه واكتئابه واضحين لاضطراره إلى إرغامها على البقاء في «لندن». جلست «تينا» تنظر إليهما وهي تتمنى لو كان في إمكانها أن تجد طريقة لمساعدة عمتها. وفجأة قطع «أليكس» الصمت، فسأل «كريس»:

– لماذا لا ترسلين «تينا» بدلا منك؟! إنك تقولين دائمًا إنها بارعة في عملها، وإنه لم يعد لديك ما تضيفينه إلى معلوماتها. ستكون فرصة رائعة لها لاكتساب خبرة جديدة، حتى لو كانت غير قادرة على البحث عن أطباء الأعشاب. وكان رد فعل «تينا» غريبًا، ارتعشت بخوف ظاهر، ونظرت إلى عمتها وقد اصفر وجهها، وانطفأت لمعة عينيها، وربتت «كريس» يدها مطمئنة وقالت لـ«أليكس» بصوت هادئ:

– «تينا» لا تحب السفر بل إنها تكرهه. ولا أتصور أبدًا أنه يمكنني أن أطلب منها الذهاب إلى الأدغال. إن التفكير فقط في شكل العنكبوت يجعلها مريضة. ونظرت «كريس» إلى جلد النمر في وسط الغرفة، وابتسمت وهي تمد ساقها لتضع قدمها على رأسه باطمئنان:

– أعتقد أنها ترمي جلد الحيوان هذا إلى الخارج إذا تأكدت أن أحدًا

لن يراها. أليس كذلك يا عزيزتي؟ قالت هذه الكلمات، وهي تنظر إلى «تينا» بحب شديد، لكن «تينا» هبت واقفة وقالت بصوت واضح الرعشة:

– سأعد بعض القهوة. واندفعت تحمل الصينية إلى المطبخ! وبعدما أغلقت الباب وراء خيالها النحيل، رفع «أليكس» حاجبيه بدهشة وكأنه يطلب مزيدًا من الإيضاح، فرفعت «كريس» يديها وقالت بصوت يائس ردًا على تساؤله الصامت:

– إني أيضًا لا أفهم، لابد أن يكون للأمر صلة بطفولتها غير العادية.

فقال «أليكس»:

– أخبريني بما تعرفين عنها!

– حسنًا، أنت تعرف طبعًا أن والدها هو شقيقي «دين». كان أحد علماء النبات المشهورين، إلى جانب حصوله على الزمالة من المعهد الملكي لعلوم النبات، وتوليه أرفع المناصب العلمية. هز «أليكس» رأسه موافقًا، في حين واصلت «كريس» كلامها:

– كانت زوجته «مويرا» ترافقه إلى أي مكان يذهب إليه. كان يصر على ذلك، ولم تكن هي تحتاج إلى تشجيع، كانت تحبه كثيرًا. وعندما ولدت «تينا» اعتقدتُ أن «دين» وزوجته سيتوقفان عن الترحال، ويستقران في منزل يجمعهما. أو على الأقل أن تبقى «مويرا» مع ابنتها، ويكتفي «دين» برحلات قصيرة يعود بعدها إليهما. ولكن لدهشتنا الشديدة لم يتغير شيء في طريقة حياتهما. وصارا يحملان الطفلة معهما إلى أماكن غريبة وخطرة في كل أنحاء العالم حتى بلغت السن التي يجب أن تذهب فيها إلى المدرسة! وأطلق «أليكس» صيحة تعجب، في حين

أومأت «كريس» برأسها مؤكدة ومواصلة كلامها:

– ومن الطبيعي أنها كانت تتلقى بعض المعلومات وثقافة عملية وهي تتجول معهما حول العالم. طبعًا لمتهما على اصطحابهما الدائم للطفلة، ولكنهما لم يريا أية غرابة في ذلك. وكانت إجابتهما عن كل مناقشة واعتراض: «الأطفال يعيشون في كل مكان، وفي كل الأحوال والظروف، وطفلتنا في حماية كاملة». وابتسمت «كريس» بمرارة واستطردت:

– وفعلا كانت الطفلة تعيش، بل وتنمو. وكانت طفلة جميلة وباسمة، سعيدة ومرحة. لكنها تحولت فجأة، وقبل أن تفترق عن والديها بقليل لتذهب إلى المدرسة الداخلية، إلى شبح هادئ منطو. وحاولت بكل جهدي أن أجعل أيامها الدراسية سعيدة. كنت أزورها وأصطحبها معي كلما سُمح لها بالخروج، لكني لم أستطع أن أحل مكان «دين» و «مويرا»، فقد كانت تتوق شوقًا إليهما. ثم... وفجأة انخفض صوت «كريس» ليصبح همسًا، وانتقل «أليكس» إلى جوارها، ووضع يده حول كتفيها. عرف الأفكار التي تزعجها حين رفع وجهها ورأى الدموع في عينيها. وفي صمت أخذ يحاول تهدئتها. ثم قال:

– أعلم الباقي يا حبيبتي، لست تحتاجين إلى الاستمرار فقد توفي شقيقك وزوجته بالحمى في إحدى القرى الهندية وهكذا أصبحت وحدك المسؤولة عن رعاية «تينا». تنهدت «كريس»، وتركت رأسها تميل على كتف «أليكس» العريضة فربت رأسها بحنان وهمس:

– يا حبيبتي، لو كنت تسمحين لي برعايتك... برعايتكما معًا. «تينا» الآن في العشرين من عمرها، امرأة تقريبًا. فإلى متى تعتقدين أن عليّ الانتظار حتى توافقي على الزواج بي؟ وفي اللحظة ذاتها، ودون أي

صوت، دفعت «تينا» باب المطبخ حاملة صينية القهوة. رأت الرأسين المتقاربين فتوقفت مكانها. كانت على وشك أن تسعل سعلة خفيفة لتنبههما لوجودها، عندما سمعت عمتها تتكلم بحزن يائس اضطرها إلى الصمت والاستماع:

– «أليكس»... لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال، «تينا» تحتاج إليّ. إنها متعلقة بحياتنا المشتركة، أنا وهي. إنها تحب هذا البيت، ولا تحلم بالرحيل مثلي، أو مثل والدها. منزلنا هو المكان الوحيد الذي شعرت فيه بالأمان الذي لم تعرفه، لا أستطيع أن أتخلى عنها. هل تفهمني يا «أليكس»، ببساطة لا أستطيع أن أهجرها! وامتلأ صوتها بالحزن وهي تقول:

– انتظر قليلا يا حبيبي. حتى تقرر «تينا» ما تريد أن تفعله في حياتها، وعندئذ، وإذا كنت ما زلت تريدني، فسوف أتزوجك وأنا في منتهى السعادة. لم تصدق «تينا» أذنيها. وخرجت كالمخدرة من الغرفة، عائدة إلى المطبخ.

- 2 -

ارتفع صوت الطائرة مدويًا وهي تدير محركاتها لتجري على مدرج مطار «لندن»، وكان دويّ المحركات النفاثة يصرخ في أذنيْ «تينا»: غبية، عمياء، أنانية، بلهاء. وملأت الدموع عينيها وهي ترسل نظرة أخيرة إلى الشخصين اللذين تشعر نحوهما بكل هذا الحب، وبتأنيب الضمير، لكن الطائرة استدارت فجأة لتعترض نظراتها، وتستقر في طريقها إلى

«ميامي»، ومنها إلى «البرازيل»، لتهبط في مطار مدينة «مانوس» حيث كان من المقرر أن تلتقي أعضاء الفريق الذي يشترك فيما أسمته عمتها: «آخر رحلة عظيمة على الأرض»! استرخت «تينا» تمامًا في مقعدها، وأراحت رأسها على الوسادة الصغيرة. أغمضت عينيها، واسترجعت مرة أخرى تلك الأيام الأليمة التي سبقت رحيلها. تداعت الصور أمام عينيها وهي تسترجع الأحداث التي أخرجتها من حياتها الهادئة. وكادت تُكذب نفسها: «هل صحيح أن كل هذا حدث في أسبوع واحد، فقط منذ سمعت «كريس» تفضي بحبها إلى «أليكس»؟»

اهتزت الطائرة اهتزازة عنيفة أثر سقوطها في أحد المطبات الهوائية، وارتفع الضجيج حولها. ولكن ذلك لم يستطع أن يطغى على آلامها النفسية التي كانت ترهقها. كان رد فعلها الأول، عندما استمعت إلى صوت عمتها الهامس وهي تناجي «أليكس»، أن تراجعت بهدوء إلى المطبخ، وهناك نظرت حولها في ذهول. امتلأ قلبها بالأسى ثم بالاحتقار لنفسها، ولأنانيتها. هذه الأنانية التي جعلتها تتعلق بالمرأة التي بقيت طوال سنوات تمثل لها طوق النجاة، مضحية بسعادتها وسعادة الرجل الذي تحبه وبالمستقبل العائلي والبيت والأولاد. وأخذت «تينا» تلوم نفسها. إنها السبب في التفريق بين اثنين هما أحب الناس إلى قلبها. ووضعت رأسها الملتهب على حائط المطبخ الرخامي البارد، لتهدئ الحمى التي تلهب عقلها، وترغمها على مواجهة الحقيقة المرة. إن حل مشكلتهما في يدها. صحيح أنها لا تستطيع أن تنكر أنها كانت تتمنى لو تبقى سنوات طويلة مع عمتها، شريكتين في العمل، سعيدتين معًا. طالما اعتقدت أن «كريس» وهبت حياتها لعملها الذي أحبته، لكن

www.rewity.com مـرمـوز

يبدو أنها كانت مخطئة وواهمة. وشيئًا فشيئًا، كان عليها أن تتخلى عن أحلامها، وأن ترغم نفسها على وضع خطة جديدة، خطة بلغت من النجاح حدًا أوصلها إلى هذه الطائرة المتجهة بها إلى مكان تعرف مسبقًا أنها ستكرهه، ولكن... لا يهم. لا شيء يهمها إلا النتيجة التي حققتها، وهي إجبار «كريس» و«أليكس» على تحديد موعد زفافهما بعد أسبوع واحد من عودتها. وقطعت المضيفة عليها سيل خواطرها، قائلة:

– آنسة «دونيللي»، هل تريدين بعض القهوة؟

– لا. ردت بصوت بارد، صدم الفتاة في الحال. وعلى الرغم من شعورها بخشونة الرد إلا أنها لم تستطع أن تعتذر إليها. أدارت وجهها إلى النافذة، ومرة أخرى عادت الذكريات تطاردها. واخترقت الطائرة سحابة قاتمة، جعلت الغيوم حولها تتحول إلى شاشة سوداء تستعيد عليها ذكرياتها، وكأنها ترى أحد الأفلام السينمائية يعرض أمامها. إنها تشاهد الآن رأس «كريس» بتاجه الذهبي الأحمر، معتمدًا على كتف «أليكس»، ونظرة الذنب في عيونهما عندما عادت إلى الغرفة في المرة الثانية، بصوت مسموع. ورأت نفسها في ردائها الأزرق، وقد نجحت في رسم ابتسامة عريضة على شفتيها، وسمعت صوت عمتها مرحبًا:

– أهلا عزيزتي «تينا»، هل أعددت قهوة، إنني أحتاج إلى فنجان منها! ووضعت «تينا» القهوة في الفناجين الثلاثة، قبل أن تتجه إلى عمتها قائلة:

– «كريس»، هل يمكن حقًا أن أذهب بدلا منك إلى تلك البقاع؟!

وأمسكت أنفاسها قليلا قبل أن تواصل كذبتها:

– كم أتمنى لو أذهب إلى هناك! وساد الصمت. وانتابت الجميع دهشة كاملة، ثم قالت «كريس»:

– ماذا؟ ذلك ممكن طبعًا، لكنني كنت أعتقد أنك تكرهين السفر. كما كنت تقولين... فقاطعتها «تينا» وهي تحاول أن تتصنع اللباقة:

– نعم أعرف ما كنت أقول. غيرت رأيي الآن، وعلى أي حال فهذه تقاليد العائلة. أليس من الطبيعي أن يكون كل آل «دونيللي» من المكتشفين؟ لقد عشت مستقرة في مكاني مدة كافية. ورفعت يديها أمامها محاولة أن تزيد من إقناعهما، ونجحت في أن تكتم أنينًا صامتًا في صوتها وهي تستطرد:

– إني الآن في مرحلة الشباب، وأشتاق إلى أن أرى مزيدًا من العالم، وأعتقد أنك تفهمين شعوري يا عمتي. أليس كذلك؟ لعل الشوق إلى المغامرة والحنين إلى الترحال يجريان في دمائنا. هل يمكن أن تساعديني على القيام بهذه الرحلة؟ وفي الحال، بدت الحماسة الشديدة على وجه «كريس» وقالت:

– بكل سرور يا عزيزتي، إذا كانت هذه حقًا رغبتك. كنت دائمًا أتمنى أن يأتي هذا اليوم. كنت أعتقد أنك تكرهين فكرة السفر. وتحول تعبير وجهها إلى الدهشة، وأردفت:

– ولكن كيف حدث هذا التغيير المفاجئ؟ منذ لحظات عندما اقترح «أليكس» الفكرة، خيل إليّ أنك ترفضينها بشدة، والآن تخبرينني بأنك في غاية الحماسة للاشتراك في الوفد! ورأت تعبيرًا على وجه «تينا»، جعلها تنقل نظرها إلى باب المطبخ، الذي كان ما يزال يهتز. ولكن قبل

أن تصل إلى الربط بينه وبين ما حدث، أسرعت «تينا» إلى النافذة، وجذبت الستائر التي تحجب الجو القارس في الخارج وأشارت قائلة بحماسة:

– انظري إلى الطقس. ثم أضافت بصوت مسرحي أخاذ:

– من الذي لا يرفض أن يترك هذا الجو إلى شمس «البرازيل» الساطعة، إذا سنحت له الفرصة؟! ونجحت الخدعة. منذ تلك اللحظة بدأ التخطيط أو التحايل كما أطلق عليه الدكتور «أليكس». فقد صدم بتجاهل «كريس» لقواعد الأخلاقيات وهي تعد «تينا» لتحل محلها إلى الدرجة التي جعلته يندهش. فقد رفضت أن تخبر السير «هارفي هانيمان» بهذا التبديل، وعندها اعترض «أليكس» قالت بصوت حازم:

– لا. لن نخبره الآن. إنه راحل في الصباح الباكر إلى «الولايات المتحدة الأمريكية»، وهذا هو السبب في أنني قضيت اليوم كله معه لأنهي كل تنظيمات الرحلة، وسأشرح له ما حدث بعد عودته! وعاد «أليكس» يعترض:

– وماذا عن بقية أعضاء الفريق، ألن تكون مفاجأة لهم أن يجدوا شخصًا غريبًا عنهم تمامًا ينضم إليهم؟ فأجابته «كريس» بصوت منتصر:

– لن يعرفوا فأنا لم أقابل أحدًا منهم، وأنا و «تينا» نحمل الاسم نفسه «كريستينا دونيللي». لن ينتبه أحد للتغيير، وكل ما يمكن أن أطلبه من «تينا» هو الصمت والابتعاد قدر الإمكان عن أعضاء الوفد. وعبثًا حاول «أليكس» أن يظهر الخطأ في سفر فتاة غير خبيرة في رحلة مثل هذه إلى قلب غابات «الأمازون»، وهي تحتل مكان مكتشفة لها سابق خبرة عالية، ويبين لهما خطورة هذه الرحلة دون عين حارسة

ترعاها، وأنه ليس من العدل أن تشترك في مغامرة يعتقد كل من فيها أنها محفوفة بالأخطار التي يمكن أن تصادفها في هذه الأماكن الغريبة، لكن اعتراضاته كلها ذهبت عبثًا. فقد تمسكت المرأتان بموقفهما بإصرار وعناد. وقطع على «تينا» حبل تخيلاتها صوت قائد الطائرة وهو يقدم بصوته المرح فكرة للمسافرين عن ارتفاع الطائرة، وعن السرعة والطريق الذي تسير فيه. فشعرت «تينا» بالغضب الشديد وبالكراهية تجاه هذا الطيار الذي يسرع بها إلى محنة جعلت حلقها يجف ودموعها تتدفق لا لسبب سوى التفكير فيها.

لم يعرف أحد قط الأحلام المزعجة التي كانت تهاجمها في طفولتها. كان قلبها مغلقًا بإحكام على ذكريات طفولتها القاسية، على الأحداث المؤلمة التي ظلت منحوتة في عقلها حتى الآن، وعلى الأحداث التي دمرت سنوات طفولتها الأولى. فهي ما زالت تذكر عندما كانت ملقاة في مهدها الصغير، المغطى بشبكة كبيرة تبعد عنها الحشرات. هذه الحشرات الهائلة التي تظل تحوم حولها بإصرار، وتبذل كل طاقتها بحثًا عن منفذ تتسرب منه إليها. وفي مكان آخر، وربما بلد آخر تمامًا، كانت تجد نفسها مرة أخرى تحت مظلة بيضاء تحميها، لكنها لم تكن تجرؤ على أن تغلق عينيها من الخوف من هذا العنكبوت الأسود، ذي الشعر الكثيف، الذي يتدلى من أحد الأركان بالسقف، محملقًا إليها، وكأنه يتوعدها ويهددها. كانت تستطيع الصراخ، لكن أمها كانت مشغولة عنها دائمًا إلى الدرجة التي تجعلها تمتنع عن الحضور لإنقاذها. الوحيد الذي كان يدركها، شخص مجهول أسود اللون، وكانت تعرف بخبرتها أن ذوي الوجوه السوداء، لن يفهموا صرخاتها، ولن يقدّروا مخاوفها.

أصوات الحيوانات أيضًا تحتل جزءًا كبيرًا من كوابيس طفولتها: زئير الأسد، وأصوات النمور العميقة الصادرة من أعماق حناجرها، حفيف الثعابين الزاحفة المتوعدة، والمتحركة حولها دائمًا، كل هذه الأشياء تعرفها، وتعرف أكثر منها، كلها تتجمع وراء الشبكة التي تحميها من الحشرات، في انتظار اللحظة التي تنقض فيها عليها!

أما خوفها الأعظم، فقد كان على والديها. هذان السعيدان اللذان يسيران، ويضحكان ويثرثران في قلب المنظر الأسود خارج شبكتها، يبتسمان لها ويربتان رأسها في الأيام الباردة التي كانت تحاول فيها أن تعبّر لهما عن مخاوفها الطفولية، لكنها كانت تعرف أنه ذات يوم سيتغلب عليهما هؤلاء الأعداء المتربصون! وبعد سنوات، عندما انهارت عمتها أمامها وهي تنبئها بموتهما في مكان ما في قلب الأحراش، لم يكن ذلك غريبًا عليها. بدا كأنه نهاية متوقعة. فقد كانت تعرف أنه بطريقة أو بأخرى ستتغلب عليهما قسوة الأدغال الوحشية، تمامًا كما سيحدث لها. فهذا هو المصير الذي ينتظرها إذا ما عادت مرة أخرى إلى الغابات!

ارتعدت «تينا». وتجمدت الدماء في عروقها، فمنذ اللحظة التي قررت فيها أن تأخذ مكان عمتها في الرحلة، حطمت الحساسية أعصابها، وتسلط الخوف الشديد والبرودة على قلبها لكنها أخفت مخاوفها بمهارة، فإن أية سقطة تظهر الحقيقة جديرة بأن تحطم «كريس» و «أليكس»، ربما إلى الأبد. وهكذا نجحت في أن تمنع الشك من أن يتطرق إليهما. فلم يكتشفا قط أنه تحت ستار السعادة والإثارة التي تظهرها، تخفي كل هذا الخوف الذي يدمر عقلها ويقتل أحاسيسها. حتى أنها عندما خطت أولى خطواتها خارج الطائرة في مطار «مانوس»،

شعرت وكأنها تحولت إلى قوقعة أغلقت أبوابها على عقلها تمامًا!

وردت على وداع المضيفة بهزة صامتة من رأسها، ونزلت من الطائرة. ففوجئت بدرجة حرارة الجو العالية، وجمعت حقائبها، واستقلت سيارة أجرة. أعطت السائق عنوان الفندق الذي ستقابل فيه بقية طاقم الرحلة. ولم تفارقها ذكرياتها، بل أخذت تثقل عليها أكثر، وأكثر.... عندما كانت الطائرة تدور حول المدينة استعدادًا للهبوط، ألقت «تينا» نظرة إلى أسفل. حيث رأت الأدغال الكثيفة الخضراء التي لا تنتهي، تحتضن المدينة تمامًا في أحراشها الخضراء. وأيقظ ذلك بكل قسوة ما اختفى في أعماقها من مخاوف طفولتها الأولى.

بعد ساعة، وبتأثير تكييف الهواء في غرفتها الفاخرة في الفندق، بدأت تشعر بالانتعاش، خصوصًا بعد حمام بالماء البارد، ارتدت ثوبًا من القطن الأبيض بلا كمّين، واتخذت طريقها هابطة السلم إلى قاعة، وأسرع إليها الساقي وهو يرى ترددها في اختيار المكان الذي تريده، فحاولت أن ترسم ابتسامة على وجهها لكن شفتيها كانتا جافتين، وخرج صوتها باردًا وقاسيًا، وقالت للساقي:

– أود أن أقابل السيد «فيغاس» وجماعته! ولمعت عيناه بالسرور وهو ينحني أمامها قبل أن يطلب منها أن تتبعه، وقادها مباشرة عبر الغرفة إلى مائدة بجوار النافذة العريضة يجلس حولها مجموعة من الرجال يبدو عليهم أنهم من الشخصيات الراقية، كانوا ينتظرون الطبق الأول من طعامهم وهم يتحدثون، خيم عليهم صمت مفاجئ عندما وصلت «تينا» إليهم. وقفوا جميعًا، بنصف ابتسامة، ينتظرون أن تتكلم. قالت بلا تردد:

– «تينا دونيللي»، عالمة نبات، إني مدعوّة إلى الانضمام إلى جماعة السيد «فيغاس»! وفي الحال امتدت الأيدي لتقدم لها مقعدًا وبدأ سيل من كلمات الترحيب ينهال عليها، وللحظة بدأ الجميع يقدمون أنفسهم لها في وقت واحد، ثم تقدم الرجل الذي يقف إلى يمينها ليسيطر على الموقف، وقدم لها نفسه، ثم بدأ يقدم الآخرين. أخبرها بلهجة أمريكية أصيلة أن اسمه «فيلكس كريللي» وأنه عالم طبيعة. وأعجبها وجهه النشيط المريح، ونظراته الحارة المرحبة بها، والتي تطلب منها أن تبتسم، ثم قدم لها شابين عملاقين، صغيريْ السن، كانا يبتسمان مرحبين بها عبر المائدة:

– «لارس» و«أندرز بريكلنغ»، مصوران من «اسكندينافيا». ولسوء الحظ أنهما لا يجيدان الإنجليزية. وأحنت رأسها للشقيقين صاحبيْ الابتسامة الواسعة في حين واصل «فيلكس كريللي» قوله:

– وهذا زميل إنجليزي، مواطن لك، «مايلز ديبريت» عالم في الجغرافيا.

أحنى الرجل الطويل، ذو المظهر المدرسي رأسه بتحية وقورة، وانتقلت عيناها إلى الرجل الذي يجاوره. كان له شعر رمادي، وعينان أليفتان فريدتان. فحياها بصوت يدل على أنه اسكتلندي أصيل. وعرفت اسمه: «جوك سوندرز». في خلال هذا التعارف، كانت تشعر بالقلق إزاء نظرة محملقة من رجل، كان هو الأخير في اللقاء. وأصابتها الدهشة عندما رأت حجمه الهائل وكتفيه العريضتين، وقد انحنى بطوله الذي يزيد على مترين ليهز يدها. نظر إليها فاحصًا. وكان عليها أن تستجمع كل قوتها حتى لا ترتعد وهو يغلق يده على يديها بأصابعه الضخمة التي يغطيها الشعر الأشقر. وشعرت كأنه يغوص في جلدها! قال بثقة:

– أما أنا فأستطيع أن أقدم نفسي. اسمي «ثيو برانستون»، أمريكي كما لابد أنك لاحظت من لهجتي، متمرس فيما يزيد على العشرات من رحلات الغابة هذه، يمكنك أن تبقيْ إلى جواري، فأنا أعرف كل ما يجب أن يُعرف عن مناطق الغابات وأخطارها، إضافة إلى أنه سيكون من دواعي سروري أن أرعاك! ونجحت في أن تخلص يدها من قبضته دون أن تظهر التغيير الذي أصابها نتيجة تأثير هذا الرجل فيها، لكن صوتها كان ثابتًا عندما أعلنت ببرود:

– أعتقد أنني لن أحتاج إلى عرضك هذا يا سيد «برانستون». وعلى أي حال أنا لست غريبة عن الأدغال، ولم أحضر إلى هذه البعثة وفي نيتي أن أجعل أي شخص حارسًا لي. وكانت كلماتها متعمدة تمامًا، تهدف إلى إيهام مرافقيها بأنها خبيرة مجربة في الرحلات والمغامرات! ونجحت خطتها بطريقة باهرة، في الحال. تغير مسلكهم من الرقة والمجاملة، الذي نبع من شعورهم بوجود أنثى جميلة بينهم، وظهرت عليهم علامات تعجب اختلفت درجاتها.. فلو أن قطة صغيرة أظهرت فجأة مخالب دامية، وأظافر مدمرة، ما انتابتهم الحيرة أكثر مما حدث لهم عندما فوجئوا بهذه الفتاة البريئة المظهر، الرقيقة مثل صورة على حائط، الجميلة بطريقة باهرة، وهي تتكلم بصوت لاذع كالسوط، رافضة عروضهم الطيبة. تأملتهم «تينا» وهي ترى خيبة أملهم. لم تكن لترغب حقيقة في أكثر من أن تنال ثقتهم وترتبط بهم وبشهامتهم، فهم من القوة بحيث يستطيعون حمايتها، لكن كان عليها أن تحتفظ بسرها، لم تجرؤ على البوح بأنها مزيفة، لذلك لم يكن لديها الخيار، يجب أن تبني جدارًا من التحفظ بينها وبين زملائها خوفًا من أن يوجهوا

إليها ولو الحد الأدنى من الأسئلة. وبذلك تضمن بقائها وحيدة، ترتكب أخطاءها بعيدًا فلا يكتشفها أحد! كان «ثيو برانستون» الذي استعاد حالته الطبيعية أول المتكلمين:

– رائع رائع... هذه هي الروح المطلوبة! وصفق بيده على ركبته بشدة، وأردف بصوت عال:

– إنني أحب الأشخاص الذين يتمتعون بهذه الروح.. نعم نعم! واقترب الساقي ومعه الطبق الأول من الطعام. وقوبل بالترحاب، فقد ساعد ظهوره على كسر الصمت الحرج الذي خيم عليهم... وأخفت «تينا» قلقها وراء قناع من اللامبالاة، أما «ثيو برانستون» فإن عينيه اللامعتين لم تجدا أي تعبير على وجهها الصامت يدل على اهتمامها بكلامه، أما بقية الرجال فقد كانوا جائعين، وتشاغلوا بالتهام الطعام، وبالتدريج أعادوا تنظيم أنفسهم حول المائدة، وواصلوا أحاديثهم التي انقطعت... وجلست «تينا» بين «ثيو برانستون» وزميله الأمريكي «فيلكس كريللي»، ولم تظهر أية رغبة حقيقية في الاشتراك في أي حديث معهم. لكنها لم تستطع أن تتجاهل السؤال المباشر الذي وجهه إليها «فيلكس كريللي».

– آنسة «دونيللي»، هل هذه هي المرة الأولى التي تخرجين فيها في رحلة مع قائد بعثتنا السيد «فيغاس»، أم أنك كنت سعيدة الحظ واشتركت معه في رحلة سابقة؟ هزت «تينا» رأسها بهدوء، وقالت بمظهرها الواثق:

– كلا... لم يحدث لي هذا الشرف من قبل يا سيد «كريللي»، ربما أمكنك أن تقدم لي بعض المعلومات عنه! امتلأ وجه «كريللي» الهادئ بالحماسة وقال:

– الحقيقة أننا لم نقابله بعد... لم يقابله أي منا حتى الآن، لكننا جميعًا نعرف الكثير عن الأساطير التي تُحكى عن قدرته على قيادة البعثات العلمية خلال الأراضي التي يفشل فيها كثير من الرجال الأقل منه خبرة.. إننا، ويمكنني أن أتحدث بالنيابة عن زملائي، نعتقد أنه شرف كبير لنا أن يختارنا بنفسه لنصحبه في هذه الرحلة!

اختارهم؟! وضعت «تينا» ملعقتها في الطبق، وأمسكت بفوطتها لتخفي فيها رعشة يديها، وتساءلت: «هل معنى ذلك أن «رامون فيغاس» يعرف عمتها «كريس»؟ وأن «كريس» في غمرة أعمالها المحفوفة بالمخاطر والتي تجعلها تنسى كثيرًا من الناس عندما تكون مستغرقة في أبحاثها – استطاعت بسوء حظ لا يصدق أن توقعها في ورطة مع «رامون فيغاس»؟ لاحظ «برانستون» اضطرابها، واحتفظ بذكائه الماكر بهذا الحادث في ذاكرته، فقد يحتاج إليه في المستقبل.. وفكر في أن الأمور لا تسير على ما يرام مع الآنسة جبل الجليد! لقد انطبعت في نفسه الآن صورتها التي تبدو وكأنها لا تبالي بأي شيء، وارتفع صوته بحدة، وهو يقتحم الحديث، معارضًا رأي «فيلكس كريللي» حول «رامون فيغاس» الغائب:

– ليس صحيحًا أنه اختارنا. فقد أرسلتني المنظمة التي أعمل فيها إلى هذه البعثة؛ لأنها اعتبرتني أفضل رجل لديها يقوم بهذه المهمة. بدأت أشعر بالاشمئزاز من سماع «قصائدكم» في مدح «فيغاس». اسمع يا «كريللي»، إنني أعتقد أنه ليس سوى برازيلي آخر شق طريقه في هذه الأنحاء، وهو يتشابه مع كل الرجال المتغطرسين من مواطنيه. إنني لا أحتاج إلى أي شخص يقودني وسط الأدغال، كلنا ذهبنا في بعثات

أخرى بغير وجوده أو قيادته، أحسب أن رجلا يحمل لقب «كارامورو» سيحتاج إلى أن يكون قادرًا على إثبات جدارته به ولسوف أنتظر باشتياق لأرى كيف يفعل ذلك!

ومسح بنظراته القاتلة المائدة، منتظرًا أن يعارضه أحد، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل واصل الشقيقان «بريكلنغ» طعامهما، متجاهلين تمامًا المبارزة التي أعلنها زميلهما، وظل «مايلز ديبريت» محتفظًا بوقاره الإنجليزي وهو يتحدث مع الاسكتلندي «جوك سوندرز». الوحيد الذي انبرى للمعارضة كان «فيلكس كريللي» الذي قال بصوت حاد ينطق بثقته بكل كلمة يقولها:

– أنا لا أوافقك يا «برانستون»! إن السيد «فيغاس» مشهور جدًا بخبرته، ويجب أن نكون جميعًا شاكرين له قيادتنا في أخطر رحلة في العالم! رد عليه «برانستون» بابتسامة غاضبة:

– سنرى. فقريبًا ينبغي له أن يثبت لنا جدارته. سيعود اليوم من وراء النهر، حيث كان يعد المؤونة والوقود، ويُنتظر أن يصل إلى الفندق الليلة، وغدًا في الموعد نفسه سنكون في مكان ما في وادي «الأمازون».. وسنرى ما إذا كان السيد «فيغاس» يستحق حقًا لقب «الرجل الناري»، أم أن شهرته تعيش فقط في خيال بعض البسطاء من الهنود الذين أطلقوا عليه هذا اللقب. وبوجه متجهم، دفع طبقه بعيدًا، وترك المائدة.. تاركًا وراءه صمتًا حرجًا.

* * * * *

استيقظت «تينا» مبكرة صباح اليوم التالي، بعد ليلة مضنية قضتها وهي نصف نائمة. وكانت سعيدة؛ لأنها ستترك الفراش وتسرع لتستعيد حيويتها بحمام بارد، ثم ارتدت ثوبًا بلا كمين من القطن، ذا لون أزرق ثلجي ليتلاءم مع المظهر الذي تريد أن تظهر به، وجلست أمام المرآة تصفف شعرها، وزمجرت بغيظ وهي تنظر إلى صورتها: «هذا الصباح سأواجه محنة مقابلة «رامون فيغاس» وأنا أحمل الأكذوبة الكبرى التي بدت لي بسيطة وأنا في «إنجلترا»، ولكني الآن في «مانوس». بدت وكأنها تمثل مشهدًا يحتاج إلى إتقان.. فأمام الأسئلة التي تتوقع أن توجه إليها، لن يكون أمامها إلا الكذب. وبعزيمة قوية، أبعدت عن فكرها تأنيب الضمير الذي يعذبها، مستعينة على ذلك بتذكر وجه عمتها الضاحك ونظرات «أليكس» المندهشة. لقد كانت سعادتهما كافية في نظرها كي تقدم على أية أكاذيب ستضطر إلى ذكرها لـ«رامون فيغاس»!

كانت غرفة الطعام خالية، لكن الساقي أسرع يعد لها مقعدًا أمام مائدة بجوار النافذة، وقدم لها قائمة الطعام، طلبت قهوة وساندويتشًا مع عصير الجريب فروت، وفي اللحظة التي بدأت فيها تناول الطعام لمحت قامة «ثيو برانستون» الضخمة في مدخل الباب وشعرت بخوف يدفعها إلى أن تنهض وتهرب، ولكنه كان أسرع منها، وألقى بجسمه العملاق على المقعد المجاور لها.

– صباح الخير يا آنسة «دونيللي». إني سعيد جدًا، لم أكن أتوقع أن أجدك هنا في هذا الصباح الباكر.. هل تسمحين لي بأن أشاركك المائدة؟

– يبدو لي أنه ليس لي الخيار! لكنه كان محصنًا ضد الإهانة فطلب فطوره بكل ثقة، وكان منظره وهو يبتلع الطعام بسرعة كافيًا كي يفقدها شهيتها فدفعت الصحف جانبًا، وحاولت النهوض. وقبل أن تستأذنه منصرفة، رفع ذراعه بإصرار وقال:

– هل سمعت آخر الأخبار؟

– أية أخبار؟ أشار لها بيده إلى الكرسي وقال:

– اجلسي، سأخبرك بكل شيء! لم تكن متأكدة ما إذا كان ذلك خطة منه فحسب؛ ليؤخر رحيلها، لكنها لم تجرؤ على أن تترك أية تفاصيل تبعدها عن الأحداث.. استجابت وهي تشعر بالاشمئزاز منه، في حين أطلق هو ضحكة سعيدة، ورشف رشفة أخرى من القهوة قبل أن يقول:

– وصل السيد «فيغاس» مساء أمس في وقت متأخر. وكان الجميع بمن فيهم أنت قد آووا إلى فُرشهم، وهكذا لم يجد غيري. فألقى إليّ بتعليماته لإبلاغها إليكم: إنه يريدنا أن نجتمع به في الصالون الخاص به في الساعة التاسعة والثلث تمامًا، كي يقدم إلينا ملخصًا للرحلة، على أن تكون الساعة الثانية عشرة ظهرًا هي ساعة التحرك. وعلى ذلك يجب أن تكون كل المعدات والأدوات جاهزة وموجودة عند بوابة الفندق في الساعة الحادية عشرة، كي تنقل إلى السفينة. وشعرت «تينا» بالخوف: إن محنتها الحقيقية على وشك أن تبدأ، وبعد أن رمقها «ثيو» بنظرة ماكرة أضاف:

– لكن ذلك ليس كل شيء. قالت «تينا» وهي تضرب الأرض بقدمها بصبر نافد:

– حسنًا، وماذا أيضًا؟

– لم يصل السيد «فيغاس» وحده فقد اصطحب معه سيدة أخرى، اسمها السيدة «أنيز غارسيا»، برازيلية رائعة. وصدقي أو لا تصدقي أنها طبيبة! وأنا أتوقع موجة من المرض تجتاح أعضاء الرحلة في خلال الأسابيع القليلة القادمة، إذا كان علاج السيدة «أنيز» لهم سيكون هو المكافأة فلذلك عليك أن تنتبهي جيدًا يا آنسة «دونيللي»، فقد أصبحت لك الآن منافسة خطيرة. ولم تهتم «تينا» بالرد، بل حدجته بنظرة احتقار، ووقفت وتركته يضحك وحده على فكاهته التي ألقاها. وكانت كلماته لا تزال ترن في أذنيها وهي تسرع إلى غرفتها: إن الساعة التاسعة والثلث، هي اللحظة التي يقرر فيها القدر متمثلا في «رامون فيغاس» مصير خطتها.. يجب أن تبدو معلوماتها على درجة من الكفاية تقنعه بأنها قادرة تمامًا على المشاركة في الرحلة. ربطت معداتها في أصغر حجم ممكن، وتركت كل شيء غير ضروري، ثم اتصلت تليفونيًا بإدارة الفندق لترسل خادمًا يحمل حقائبها إلى أسفل، حيث تكون معدة في الساعة الحادية عشرة، كما أخبرها «ثيو». ولم تكن الساعة قد بلغت التاسعة، فقررت أن تكتب رسالة إلى عمتها قبل أن تبدأ الرحلة. ووجدت صعوبة في كتابة الرسالة. كانت تنوي أن تعبر عن شوقها وتوقعاتها للرحلة التي ستبدأ اليوم، لكنها شعرت بالكلمات تخونها.

وامتلأت الأرض حولها بالأوراق التي مزقتها قبل أن تكتب الرسالة أخيرًا. وحملقت إلى ساعتها.. إن وقت اللقاء الحاسم أزف. وبتردد وضعت الخطاب المحتوي على القليل الذي استطاعت أن تكتبه، في ظرف ودسته في جيبها لترسله بالبريد. لم يعد هناك وقت تضيعه

في أكثر من ذلك. فقد دقت ساعة الصفر. عندما وصلت إلى الغرفة التي دلوها إليها، وقفت مترددة فوق البساط الثقيل الذي يكسو الممر، تتساءل: هل تطرق هذا الباب الخشبي الأسود، أو تدلف بهدوء؟ عندما سمعت همهمة أصوات من داخل الغرفة عرفت منها أن الجميع حضروا فعلا، فابتلعت خوفها، واستجمعت شجاعتها، متوقعة أن يحدث دخولها ضجة باعتبارها أحد الحاضرين.

لكن دخولها لم يحظ بأي اهتمام، ما عدا نظرة سريعة ذكية من الرجل الذي كان واقفًا يشير إلى خريطة تغطي تقريبًا الحائط كله الذي خلفه. وجلست في أول مقعد صادفها. وراء الموجودين جميعًا، وتنهدت بعمق وراحة؛ لأن دخولها المتأخر لم يسبب أي ارتباك للمجتمعين والمستغرقين في الاستماع.. وتابع المتحدث كلامه بصوت واضح:

- ستكون رحلتنا خلال أخطر المناطق وأكثرها رعبًا في «البرازيل» و «فنزويلا»، وسننتقل إليها في أحدث وسائل المواصلات. سنغزو أماكن لم يسبق اقتحامها، ومساقط مياه غير ظاهرة على خرائط حتى الآن في العالم كله، أماكن لم تعرف المدنية.. لم تكن «تينا» تتابع كلماته بقدر ما كانت تحاول الحكم على شخصيته.. وسقط قلبها بين ضلوعها، فلو أنها كانت تضع بعض الآمال على أن «رامون فيغاس» سيكون شخصية متعاطفة، يمكن استمالته بحديث ناعم، فإن آمالها كلها انهارت الآن بعد النظرة الأولى..

كان شكله يدل على شخصية الرحالة القاسي، خصوصًا شكل الفك بخطوطه المستقيمة، وكلما تحدث ألقى بمهارة شديدة بتلميحة براقة تسقط على كل واحد من المستمعين على حدة، فيشعر كل منهم بأنه

المقصود بالحديث، فينتبه له دون مجهود.. ولاحظت «تينا» أنه قادر على تحريك الناس أمامه وكأنهم قطع في لعبة الشطرنج دون أن يشعروا. وكانت عيناه زرقاوين مدهشتين. وأشعة الشمس تسقط من خلال النافذة فوق رأسه الأسمر. ذي الشعر الأسود اللامع.. وبدت منه حركة مفاجئة رشيقة وهو يشير بعصا إلى الخريطة الموجودة خلفه، مبينًا خط سير البعثة.. كان ما يزال يتكلم، ولكن «تينا» لم تكن منتبهة لكلامه، وقد جذبتها عضلاته القوية البارزة تحت قميصه الحريري. وتلميحاته السريعة الذكية التي لا يفوتها شيء، والتي تخلق حوله جوًا يفوح بالثقة بقدراته، والتي تخونها نظراته الملولة الشاردة أحيانًا إلى خارج النافذة، وكأنه بوجوده في الغرفة ابتعد كثيرًا عن الحرية، كل هذه المميزات كانت ترسم شخصية حيوان يائس من إمكانية الهرب من قفص مغلق! شرح «فيغاس» مراحل الرحلة وما يحف بها من أخطار وانتظر قليلا، ليرى تأثير كلماته فيهم.. وعندما شعر بأنهم تواقون إلى معرفة المخاطر التي سيواجهونها، قال بإصرار:

- إذا كان بينكم شخص يريد أن ينسحب، أو أنه يشك في قدرته على القيام بالرحلة، فأرجو منه بكل أمانة أن يعلن ذلك الآن. وأرجو ألا يشعر بالخجل من اعترافه بالخوف، والواقع أن هذا الاعتراف يحتاج إلى شجاعة، لكن يجب أن أؤكد أنه فور أن تقلع السفينة المحلقة فلن تكون هناك عودة مهما تكن الظروف، كل شخص في هذه الرحلة يجب أن يكون قادرًا على الاستمرار، حتى إذا اضطر إلى البقاء وحيدًا في قلب الأدغال، فأنا لا أنوي أن أحمل معي سُيّاحًا! وإنما كل فرد ستكون له وظيفة يقوم بها، وإذا كان هناك من لا يستطيع القيام

بالمهمة التي ستوكل إليه... فليقل ذلك الآن!

وبدأ أعضاء الوفد يتناقشون، وقرر «فيغاس» أن يترك لهم فرصة لاستيعاب كلماته، فترك المسطرة على المنضدة وسار وعلى فمه ابتسامة مريحة في اتجاه امرأة كانت تجلس بعيدة عن الباقين، ولم تكن «تينا» قد وجدت الوقت لتفحص تلك المرأة. وإن أدركت أنها لابد أن تكون السيدة «أنيز غارسيا».. كما أنها لم تجد وقتًا لتلاحظ شعرها الأسود المنقسم إلى قسمين، والمنسدل على خديها الناعمين، ولا فمها القرمزي الذي ترفعه في إغراء، واستدارت لتندمج في المحادثات التي دارت حولها...

واكتشفت أن بقية أفراد البعثة تقابلوا مع الأشخاص الذين قابلتهم بالأمس، وقام «فيلكس كريللي» مرة أخرى بمهمة التعريف، لكن في غمرة الضجيج ضاعت الأسماء وعرفت أن الوفد يضم ثمانية عشر شخصًا.

سألها القبطان «جوزيف روجرز»:

- هل استطاع «رامون» أن يخيفك، بتحذيره المبالغ فيه يا آنسة «دونيللي»؟ كانت ستعترف بذلك، لكن عقلها الواعي أدركها بسرعة، فنطقت بطريقة خالية من الحرارة:

- لا. طبعًا لا، إن شيئًا لن يجعلني أخاف هذه الرحلة، وأعتقد أن السيد «فيغاس»، أحب أن يقدم نفسه إلينا بطريقة مسرحية بعض الشيء، لكني أجد له عذرًا من أصله اللاتيني، الذي يترك أثره في أحكامه بوضوح. ونحن جميعًا هنا على كل حال أناس لنا خبرتنا، ومن الأفضل للسيد «فيغاس» أن يركز اهتمامه فيمن كانوا غرباء عن الغابات.

- هل هذا صحيح؟ جاء الصوت من مكان ما حولها، والتفتت «تينا» بحثًا عن صاحب الصوت.. فوجدت نفسها أمام «رامون فيغاس»، وفتح فمه الصارم ليوجه كلمة احتقار غاضبة، لكنه عاد فأغلقه، واستدار يوجه كلامه إلى المجموعة التي احتشدت وراءه:

- أعتقد أيها السادة أنكم أعددتم كل التجهيزات الضرورية، فإذا كان كل منكم على استعداد لاتباع تعليماتي، فهل لكم أن تتوجهوا إلى غرفكم، وتحضروا معداتكم لنقلها إلى السفينة المحلقة؟ إن لديكم وقتًا لغداء سريع قبل أن نبدأ رحلتنا ظهرًا أرجوكم ألا تتأخروا. وبعدما خرجوا أمسك بذراع «تينا»، فوقفت وهي تعاني النظرات التي وجهت إليها. انتظرت في صمت حتى خرج الرجال من الغرفة، ولكن عندما أغلق الباب بعد آخر رجل، خلصت ذراعها من يده بنظرة استنكار، وقبل أن تنطق، إذا بعاصفة من الضحك الساخر تذكرها بوجود «أنيز غارسيا» في الغرفة! قالت «أنيز»:

- رائع يا آنسة. وصفقت بيديها، ثم استطردت:

-طوال حياتي لم أجد الشجاعة لأتحدى «رامون» بالطريقة التي أقدمت عليها، مع أنني تمنيت كثيرًا أن أفعل ذلك. هل تسمحين لي بأن أبدي إعجابي بجرأتك؟! وظل صدى ضحكات «أنيز غارسيا» يتردد طويلا في الغرفة بعدما أغلقت الباب وراءها، تاركة «تينا» وحدها مع الرجل الذي كان في هذه اللحظة ينطبق عليه تمامًا لقب «كارامورو»، فقد كانت النار تشتعل فيه، في حين أشعلت الشمس التي تلمع من خلال النافذة خصلات شعره، وجعلتها بلون الكهرمان. وارتفعت ذقن «تينا»، وأغلقت فمها، لكنها أخفت الخوف في عينيها باصطناع البرود، وبدا

هو وهي كمقاتلين في الحلبة، النار في مواجهة الجليد.. ومرت دقيقة مشحونة بالغضب الصامت، دون أن يحرك «رامون» عينيه عن عينيها، ثم لوح بمجموعة من الأوراق أمامها. وكانت فرصة لتجد العذر لتحويل نظراتها عنه. ثم قال:

– أعتقد، من الأوراق الموجودة معي، أنك الآنسة «كريستينا دونيللي».

وكان كلامه عامًا، لا يحمل صيغة السؤال، لكنها أجابت:

– اعتقادك صحيح. وضاقت عيناه، لكنها لم تسمح لنفسها بأن ترتعد وهو يراجع أوراقها. كان قناع الثقة يبدو وكأنه التصق بها، في الوقت الذي انتهى هو من التدقيق، وكانت حذرة وهي ترى الحيرة في وجهه تحل محل الغضب وما لبث أن سألها مدققًا:

– أنت «كريستينا دونيللي» عالمة النبات المشهورة؟ فشعرت بأنها لا تكذب تمامًا وهي تجيبه:

– هل من الصعب أن تصدق هذا يا سيد؟وكان قلبها يدق بشدة، فتريث لحظات، ثم قال ببطء ولكن بصوت عال:

– لقد سمعت طويلا عن «كريستينا دونيللي»، وعن نجاحها في مختلف البعثات التي اشتركت فيها، وكنت في شوق إلى الالتقاء بها، لكني لم أسمع قط ما يدفعني إلى الاعتقاد بأنها متغطرسة أو غبية! وفتحت «تينا» فمها لتعترض لكنه منعها مردفًا:

– ومن بين العديد من المكتشفين الخبراء الذين عملت معهم، وقاسمتهم رحلاتهم، لم يُظهر واحد منهم حتى الآن استهانته بالأخطار التي نقابلها في عملنا، فإما أنك امرأة خارقة الشجاعة بدرجة غير عادية يا آنسة «دونيللي»، وإما أنك امرأة عديمة الإحساس، إلى درجة

الاستهتار! وقطع كلامه، وانتظر قليلا، ثم استطرد:

– على كل حال ستكون الأسابيع القليلة القادمة كفيلة بالإجابة عن أسئلتي، وأنا أتمنى بإخلاص أن تكون فكرتي عنك عندما تنتهي الرحلة، فكرة عظيمة كما كانت قبل أن أقابلك! رفعت «تينا» رأسها، وردت على نظراته الغاضبة بنظرة لامبالاة وقالت:

– إن رأيك في شخصيتي لا يهمني إطلاقًا، وحياتي سوف تستمر بغير تقديرك. ولكن لكيْ تعرف فحسب.. وسارت في اتجاه الباب، لكنها توقفت لحظة ويدها على المقبض وأضافت:

– ستكون أنت أيضًا موضع الاختبار يا «كارامورو»، فهناك غير عضو في هذه البعثة يهمه أن يتأكد استحقاقك لهذا اللقب، وربما في نهاية الرحلة يحتاج كل منا إلى إعادة النظر في رأيه. وانطلقت مسرعة قبل أن ينطلق من فمه سيل من الشتائم.

- 3 -

ضغطت «تينا» قبضتها بشدة وتوتر، وهي تشعر بالاهتزازة الأولى للمحرك الآلي القوي للسفينة المحلقة وهو يهدر في داخلها. وكانت اللحظات التي سبقت تحرك السفينة مشحونة بالقلق. هل ستعمل بكفاءة؟ هل يستطيع ربانها تحريكها بنجاح؟ وهل ستتحمل هذه الكمية الكبيرة من الآلات، والأدوية والمعدات، وأجهزة صيد السمك، والكبريت والذخيرة الحية، والحصى، التي سيتعاملون بها مع الهنود الحمر؟ هل يتحمل كل ذلك، هذا الزورق الأسود الهائل الذي يشبه الضفدعة،

www.rewity.com

والذي سيكون مسكنًا لهم مدى أربعة أسابيع؟! تركت «تينا» عينيها تلتصقان بالنافذة والآلات تهدر متصاعدة إلى قوتها القصوى، وشعرت وكأن الزورق محمول على وسادة هوائية، ثم انزلق في ممر أملس إلى الماء محاطًا بسحابة كثيفة من الرذاذ، ودهشت لهذه الكمية الهائلة من أصوات الطيور التي ارتفعت صارخة في الفضاء تدور حولهم غاضبة وهم يشقون عباب النهر الأسود.. وانتشرت موجة من الفرح بين الرجال عندما أعطى القبطان «جوزيف روجرز» علامة النصر من غرفة القيادة، واندفعت عبارات التهاني عندما استقرت السفينة نهائيًا بثبات في طريقها إلى منطقة «كازيكوير» في أعالي «أورينوكو».

كان الزورق مزدحمًا بالمعدات، وكل عضو في البعثة قد اختار بصعوبة مكانًا صغيرًا ليقوم فيه بعمل أبحاثه وها هي «تينا» الآن تمضي في طريقها المحتوم، وقد وجدت أن العمل هو وسيلتها الوحيدة للنجاة، وجمعت نماذجها الأولى وقررت أن تدفن نفسها في دراستها لتنسى مخاوفها من المخاطر التي تكمن لها في المناطق الواسعة من الأدغال، التي ترحل إليها الآن، وحاولت أن تتغلب على العقد الكامنة فيها، لكن القلق كان يغمرها وهي تشاهد مدينة «مانوس» تختفي خلف الأفق بعيدًا عن أنظارها، وكان عزاؤها أنها أصبحت الآن فعلا وسط المعركة، وكان القلق يسيطر عليها منذ تركت «رامون فيغاس» في الصباح الباكر من هذا اليوم. وعندما وصلت إلى غرفتها ذكرتها الأوراق المتناثرة بالرسالة التي كتبتها إلى عمتها، وتحركت يدها آليًا إلى جيبها حيث وضعتها قبل الاجتماع، لكنها خرجت خالية! كان الخاطر الأول الذي داهمها أن يكون «رامون فيغاس» وجد الرسالة على الأرض قرب المقعد الذي

كانت تجلس فيه. فاندفعت تنزل السلم، لكن الغرفة كانت خالية تمامًا. وبعد بحث فاشل، أيقنت أن شخصًا ما وجدها، ولكن من يكون هذا الشخص؟

احتمال واحد أصبح مؤكدًا الآن: أن «رامون فيغاس» لا يمكن أن يكون هو الشخص الذي عثر عليها، فقد كان من المنطقي في هذه الحالة أن يستدعيها ويواجهها فورًا بسؤال: لماذا تبعث برسالة من رسائل الفندق إلى نفسها، وقد وضعت عليه عنوانًا هناك في «لندن»؟ وسمعت صوت «أنيز غارسيا» أعلى من صوت الآلات:

- آنسة «دونيللي» هل أنت صماء؟ وجهت إليك السؤال نفسه ثلاث مرات حتى الآن!

- آسفة، ماذا تريدين أن تعرفي؟

- إنني أعد ملفًا لكل عضو في البعثة، وأريد بعض المعلومات عنك. فأنت تعرفين طبعًا أنني طبيبة. وأومأت «تينا» برأسها. «دونا أنيز» لا تبدو أبدًا كطبيبة، كانت ترتدي بلوزة من النايلون بيضاء اللون، مع تنورة ناعمة متطايرة من اللون الأخضر الباهت، وحزام عريض من الجلد مشغول بالمعدن، وقد أمسك خصرها بشدة حتى بدت شديدة النحافة، مما جعل منظرها يبدو أقرب إلى الغانية منه إلى الطبيبة، لكنها شعرت بالرضا عندما فكرت فيما سوف تعانيه «دونا أنيز» عندما تشتد حرارة الجو بعد ساعتين على الأكثر، وتصبح البلوزة النايلون، مع أنها تسير مع أحدث خطوط الموضة، وكأنها طبقة أخرى من الجلد، كما أن الحزام الجلدي سوف يلفت الأنظار إليها عندما يصبح احتكاكه بخصرها غير محتمل. قالت «أنيز»:

– ماذا تحملين من الأدوية؟ أجابت وهي تعد على أصابعها:

– أدوات العلاج الكاملة ضد سموم الثعابين، بما فيها مشرط دقيق لا يزيد طوله على ثلاثة سنتيمترات ودواءً ضد الحشرات، ومضادًا حيويًا للملاريا، وأقراص فيتامين، وأقراصًا للملح. وتحولت نظرات الطبيبة، إلى التعجب وسألتها:

– كم عمرك؟ فرمقتها بعينيها كأنها تقدر عمرها بنفسها، ولاحظت اللون القرمزي الذي يخضب جلدها الجميل وهي تفكر بوحشية، وأطلقت «تينا» أكذوبتها:

– ست وعشرون سنة. وبدت «أنيز» وكأنها غير مصدقة، ومع أنها لم تعترض، إلا أن «تينا» شعرت بأنها لا تصدقها وغاض لونها عندما ألقت عليها الطبيبة نظرة خبيثة وقالت:

– يا للتشابه العجيب، إننا في سن واحدة. ودون انتظار لأي تعليق، واصلت أسئلتها:

– ماذا أكتب أمام الوظيفة التي تشغلينها: صائدة النبات؟ وتجمدت «تينا» أمام لهجة الاحتقار التي تحدثت بها «أنيز» فكلمة صائد النبات كثيرًا ما كانت تطلق على علماء النبات للانتقاص من قدرهم أكثر من الإعجاب بهم، ولم تهتم «تينا» بمعرفة ما إذا كانت «أنيز» تبغي السخرية أم الإعجاب، فقد انبرت للدفاع عن جميع العلماء المهانين في مهنتها، بحرارة قاسية قالت:

– قدم علماء النبات الكثير لعالم الطب يا آنسة، ولولا العلماء السابقون في مهنتنا لكنتم أنتم أيها الأطباء مازلتم تعانون الجهود الفاشلة في سبيل الشفاء من الملاريا. وأضافت بنبرة غاضبة:

– من الذي اكتشف أن أوراق السبانخ والفلفل الأخضر تستخدم في تحضير فيتامين «ك» الذي يساعد على التجلط ويمنع النزيف، هل كان طبيبًا؟ كلا، لقد كان صائد نبات، ثم من الذي اكتشف النبات ورعاه وبذل الجهد ليل نهار وأجرى التجارب ليكتشف الخلة التي تشفي الجذام؟ هل كان طبيبًا؟ كلا، مرة أخرى، بل لقد كان صائد نبات وهناك المطاط والحبال والشمع كل هذه الأشياء أخذت الكثير من عمر صياد النبات، وهو يعيش وحيدًا ولأسابيع طويلة بين الأدغال وعلى شواطئ الأنهار والممرات الصخرية العتيقة، وبرودة ضباب الصباح، والليالي الباردة السوداء، والحيوانات المتوحشة، والزواحف السامة. لكنها توقفت عندما لاحظت هذه الدائرة من الوجوه المشدوهة التي أحاطت بهما. كان هجومها الذي سببته كلمات «أنيز» المهينة، قد جذب المتفرجين المذهولين، ليحاولوا التحكيم بين الاثنتين، متعاطفين تمامًا مع «أنيز غارسيا» التي كانت قد رسمت على وجهها بقدرة رائعة تعبيرًا هو خليط من الخجل والضعف، وشعرت «تينا» بالغباء، فتحولت عنها، لكنها توقفت عندما سمعت صوت «رامون فيغاس» يفرق الرجال. ووسط جمع من المتعاطفين سارت «أنيز» إلى الجانب الآخر من السفينة، تاركين «تينا» وحدها مع «فيغاس» وقد قابلت نظراته القاسية بنظرة حادة لكنه لم يتكلم حتى جلس إلى جوارها. وعندئذ قال محاولا السيطرة على كلماته بإرادة حديدية:

– يا آنسة «دونيللي»، لماذا تجدين من الضروري أن تضايقي كل شخص يحاول الاتصال بك؟

– هذا غير صحيح.

– اسمحي لي، إنني أستطيع أن أحكم بذلك من الطريقة التي يتجنبك بها الزملاء، إنك تعاملينهم بكبرياء. وإذا حكمنا على المثال الذي شاهدته الآن فإن الغطرسة فيه تزيد على الحد. إنني أحمل كل احترام لكل أعضاء مهنتك، وأيضًا للشهرة العظيمة التي بنيتِها أنت لنفسك، ولكني أريدك أن تعرفي... وصمت، وانحنى إلى الأمام حتى أصبحت عيناه الزرقاوان الذكيتان في مواجهة عينيها:

– إن نجاح هذه البعثات يعتمد أساسًا على مقدرة أعضائها على التكيف مع بعضهم البعض، تمامًا كما تعتمد على حسن تخطيط الرحلة ومقدرة القيادة. وقد استطعت أن أهتم بكل تفاصيل النقطتين الأخيرتين، لكن الآن يبدو أنني يجب أن أتأكد انسجام الفريق كله خلال الرحلة، لذلك أرجوك يا آنسة أن تراعي في المستقبل اختيار عباراتك، وأن تحاولي – حتى لو وجدت صعوبة في ذلك – أن تعاملي زملاءك بطريقة أكثر رقة مما تفعلين. وانحنى نحوها متوعدًا، منتظرًا إجابتها، والغضب الجامح يلمع في عينيه الزرقاوين. أفاقت «تينا» من الجو الساحر البدائي الذي يفوح منه، وكافحت لتخلص صوتها من عقدة الصمت التي أصابتها. شعرت كأن جوانب السفينة تتقارب لتضيق حولها. في الخارج لم تستطع أن ترى غير جدار من الأدغال الموحشة، ومساقط مياه مندفعة، لكنها كانت قد شعرت بأنها تستطيع أن تجد في الداخل على الأقل بعض الأمن والحماية. أما الآن، وشبح «رامون فيغاس» يخيم عليها فها هو تهديد محنة الأدغال الوشيكة بدأ بالفعل. وانكمشت بجسمها النحيف في ركن مقعدها، وقابلت نظراته بعينين واسعتين امتلأتا بالرعب. وأمام منظر تراجعها، أطلق صيحة تعجب

مغمغمة، ووضع يده السمراء ذات الأصابع القوية فوق يدها المرتعدة، وسألها برقة:

– ماذا حدث يا آنسة، ما الذي يضايقك؟ واحمر وجهها، وسحبت يدها من تحت يده، وهي تستعيد نظراتها الحادة التي دربت نفسها عليها وقالت:

– إنني أكره العنف يا سيد، أرجوك ألا تلمسني! وتراجع في الحال، ووقف ينظر إليها غاضبًا، ثم غمغم بكلمات إسبانية، وهمس لها في شبه فحيح:

– إنني أكاد لا أصدق.. كيف يمكن أن يخفي هذا المظهر الفائق كل هذا السم البارد! إنك تدهشينني يا آنسة! وتصورت أنه سيتركها، ولكن بعد دقيقة من الصمت، كانت خيبة أملها شديدة عندما اكتشفت أنه قرر أن يعيد المحاولة. وبصوت هادئ، حاول أن يستميلها، قائلا:

– يجب أن أعترف بأننا مجموعة من الناس مختلفة الأمزجة والمشاعر، وأن الانسجام بين الجميع ليس بسيطًا.. لكن الأمر يكون سهلا لو أننا كنا غير مستعدين للاحتكاك ببعضنا البعض، ولو حاولنا الاتصال فيما بيننا بنية صافية للوصول إلى مجموعة منسجمة راقية.. ألا توافقينني على ذلك؟ وعندما رفضت الجواب، بدا صوته أكثر قسوة وهو يستطرد:

– هناك اتجاه قوي للصداقة ينمو بين أفراد الفريق، وكل منا مستعد للمشاركة في الأعمال التي سنقوم بها في المعسكر الذي سنقيمه عندما نتوقف في المساء. فهل تعدينني بأنك ستتخلين عن تسلطك لتسمحي لروح الصداقة بأن تنتشر؟ إنه شيء علينا جميعًا أن نفعله، وسوف ننجح فيه، إذا لم يتعمد كل منا أن يصطدم بالآخر في محاولة لتحطيم

معنوياته. كان يتحدث إليها طالبًا منها الصداقة وهذا هو الشيء الذي لا تجرؤ على القيام به. وباندفاع ظاهر قالت:

– أتيت يا سيدي إلى هنا للعمل، وليس للقيام بلعبة العائلات السعيدة، إنني سأقوم بالأعمال التي تطلب مني طبعًا، ولكن لا تطلب مني أن أكون اجتماعية، لأن لا وقت لديَّ لذلك.

– حسنًا. الليلة عندما نقيم المعسكر، سيكون عليك القيام بأعمال المطبخ، ستعدين العشاء وتقدمينه، ثم تنظفين الأواني بعد الانتهاء من الطعام، ويجب أن تكوني قد انتهيت من أعمالك قبل الساعة العاشرة، لأنك يجب أن تستيقظي في الخامسة صباحًا لتعدي طعام الفطور هل هذا واضح؟ هزت رأسها بالموافقة دون أن تنطق بحرف. فاستدار عنها في حدة، وسار مبتعدًا عائدًا إلى عمله، وفجأة لم تستطع أن ترى شيئًا، إذ غمرت الدموع عينيها. فحولت رأسها إلى النافذة، وأغمضتهما بسرعة لتتخلص من دموعها، لكن الدموع جرت على خديها سريعة وكثيفة وحارة. وكانت حقيبتها على الأرض، فانحنت فوقها لتخرج منديلها، عندما سمعت صوت «برانستون» الكريه. لقد وقعت في الشرك. لم يكن أمامها وسيلة إلا أن تمسح بيدها الدموع المتدفقة قبل أن ترد عليه، وألقت رأسها بعيدًا، متظاهرة بمشاهدة المناظر أمامها. ولكن ها هي الآن مضطرة إلى مواجهته بعد أن ألقى بجسمه على المقعد المجاور لها، وسألها بفضوله المعتاد:

– هل استطاع الرئيس أن يضايقك؟

– كلا. لماذا؟

– لأنك تجرأت وأهنت سيدته المفضلة. ألا تعرفين أن «أنيز» أرملة.

وأنها هي والسيد صديقان حميمان؟ وهناك إشاعة أنهما سيتزوجان بعد انتهاء هذه الرحلة مباشرة.

– أنا لا أهتم بحياة الناس الشخصية، فإذا كان هذا هو كل ما تريد أن تخبرني به يا سيد «برانستون» فاسمح لي بالانصراف، لأن عندي بعض الأعمال العاجلة. وأخرجت مجموعة من الأوراق، ارتفع حفيفها وهي تقلب فيها. لكنه لم يظهر أي استعداد للانصراف، بل على العكس، فقد أراح نفسه أكثر في مقعده واستدار في اتجاهها، وبادلها نظراتها المتجاهلة بنظرات حافلة بالاهتمام:

– هل تعرفين يا «تينا» أنك تثيرين فضولي حقًا؟ وبهدوء واضح أخذ ينظر إليها، منتظرًا رد فعلها، الذي تمثل في جمعها لأوراقها، وتحركها للانصراف. لكنه مد ساقيه الطويلتين مغلقًا الطريق أمامها فقالت:

– أرجوك، أريد المرور والانصراف. تلاشت ابتسامته، واتسعت عيناه الضيقتان. وامتلأتا بنظرة مهددة:

– اجلسي يا حبيبتي، إن هناك مواضيع كثيرة يجب أن نبحثها.

– كلا.. واعلم يا «برانستون» أن وجودك يضايقني، وأنني لن أتحمله دقيقة أخرى، فإذا لم تتركني أسير في طريقي، فإنني سأصرخ طالبة النجدة. احمر وجهه، وانثنى فمه. وفجأة، مد يده إلى جيبه الداخلي، وسحب منه ظرفًا، حركه أمام عينيها وكانت ضربة. وببطء جلست مكانها ثانية، وارتفعت دقات قلبها من الانزعاج: ليس هناك خطأ، فها هو خطها على الظرف الذي يمسكه بيده. «ثيو برانستون» هو الذي عثر على رسالتها إلى عمتها، سألته:

– من أين حصلت عليه؟

– سقط منك يا حبيبتي هذا الصباح بعد الاجتماع. وقد التقطته لأعيده إليك، ولكن كنت فضوليًا أكثر من اللازم فاختلست نظرة إلى الاسم، واستغربت! أليس ذلك غريبًا يا عزيزتي؟ قالت محاورة:

– ما هو الغريب في أن يكون لعمتي الاسم نفسه الذي أحمله يا سيد «برانستون»؟

– لا شيء يا حبيبتي، ولكن ذلك ليس اللغز كله. أليس كذلك؟

– لغز.. أي لغز؟

– اسمعي يا عزيزتي «تينا»، «رامون فيغاس» ليس الوحيد الذي سمع عن «كريستينا دونيللي»، عالمة النبات المشهورة. لقد قمت أنا أيضًا ببعض التحريات، وعلمت أن الآنسة «دونيللي» الحقيقية يقترب عمرها من الأربعين وليس العشرين. هل تعتقدين أنني لن ألاحظ محاولتك أن تظهري أكبر سنًّا من الحقيقة، قبل أن تقابلي «فيغاس»؟ وواصل حديثه في مرح:

– ولكن، حتى تصفيف شعرك بهذه الطريقة، لا يمكن أن يخدع رجلا، ويجعله يعتقد أنك قد خلفت سن المراهقة وراءك منذ زمن بعيد، ولذلك، هيا يا عزيزتي أخبريني بالقصة كلها وأعدك بأن سرك سيكون في أمان. تراجعت في مقعدها. لم تكن لتستطيع أن تشعر بالثقة به، وكان كلامه الناعم الذي يحاول أن يخلطه بالأعذار يثير اشمئزازها، ولكن ما الذي يمكن أن تفعله الآن، سوى أن تثق به. لم يكن لديها شك في أنه سيستفيد من سرها لتحقيق مصالح خاصة به، ولكن لم يكن لديها خيار، فهم ما زالوا على مقربة من «مانوس» ولا تستطيع المجازفة بأن تتركه يفضي بسرها إلى «رامون فيغاس»: كانت مهزومة

تمامًا، ومن نظرات الانتصار في عينيه، عرفت أنه يعلم ذلك، فتنهدت في يأس، وقالت:

– أخبرك بكل شيء إذا وعدتني بكتمان السر.

– هيا يا حبيبتي كلي آذان مصغية... ارتعش صوت «تينا» وهي تبدأ قصتها:

– اشتركت في هذه الرحلة متقمصة شخصية أخرى؛ لأن عمتي، وهي «كريستينا دونيللي» الحقيقية كُسرت يدها في اللحظة الأخيرة، وكان عليّ أن أحل محلها حتى لا نغضب السير «هارفي هانيمان»، عالم النبات الذي كان يعقد آمالا عريضة على النتائج التي ستعود بها من هذه الرحلة، لا سيما وأنني أنا بدوري عالمة نبات متمرنة، وقد عملت قريبة من عمتي، حتى أنني أعرف تمامًا ما الذي تبحث عنه، ولا يعرف هذا السر إلا عمتي وأنا فقط، ولذلك فإنني مضطرة إلى الاحتفاظ بشخصيتي حتى نهاية الرحلة؛ لأن السيد «فيغاس» سيعيدني إذا عرف الحقيقة. ولذلك أرجوك يا سيد «برانستون» أن تحتفظ بما صارحتك به لنفسك. إن وجودي هنا ضروري، وتنكري لن يضير أي شخص، أرجوك أن تعدني بألا يعيدوني من حيث جئت. ألقى برأسه إلى الخلف، وانطلق ضاحكا وضرب على ركبتيه وقال:

– هل هذا هو كل شيء؟ تمخض الجبل فولد فأرًا، كنت أعتقد أنك على الأقل هاربة من جريمة ما... سأحتفظ بسرك فلا تقلقي وسأكون حارسك طوال الرحلة وهذا يسعدني جدًّا. وليؤكد سعادته، جذب ذراعه حولها محتضنًا إياها، ومن الركن الضيق الذي وجدت «تينا» نفسها فيه، رأت «فيغاس» يستدير غاضبًا وأنقذت نفسها من ذراعي «ثيو» وقالت:

www.rewity.com

– سيد «برانستون»، إذا كررت هذا التصرف مرة أخرى، فسأخبر الجميع بالقصة كلها بنفسي! ومن الوميض الذي لمع في عينيها الخضراوين، أيقن أنها تعني كل كلمة تقولها، فقرر أن يعيد الهدوء إلى الموقف، سحب ذراعه من حول كتفها، وقال بلهجة البريء المظلوم:

– حسنًا يا عزيزتي. سأفعل ما تريدين، لم يحدث أي ضرر. استلقت في مقعدها، وأغمضت عينيها، تاركة اليأس الذي كانت تشعر به يغمرها: هل حقًا لم يحدث أي ضرر؟ ولسبب ما لاحقت في خيالها نظرة «رامون فيغاس» الغاضبة، وكأنها تُكذب هذه الكلمات!

- 4 -

كان الغروب قد بدأ يلقي ظلاله الأولى، عندما وصلوا إلى «ثيو بوروكوارا»، أول استراحة لهم في رحلتهم، وكان الزورق المحلق قد سار بهم بسرعة هائلة بفضل القيادة الماهرة للكابتن «جوزيف روجرز»، الذي نجح في عبور المنحدرات الهائلة، والمناطق التي امتلأت بالحشائش التي تغلق أمامهم أبواب النهر. حتى وصل بهم إلى استراحتهم الأولى. وما إن ارتفع صوت أزيز المحرك وهو يتوقف، حتى تدافع الجميع للخروج من الزورق في شوق؛ تخلصًا من الجو الخانق الحار الذي عانوه طوال الساعات الأخيرة من الرحلة.

وقفت «تينا» على سياج الزورق، وجاهدت لاستنشاق بعض النسمات، ونظرت حولها. كان المكان متسعًا، اختاره «رامون فيغاس» بنفسه في إحدى رحلاته السابقة، وقد أحاطت به الأدغال من جهات ثلاث.

وعادت بها رائحة النبات، ونسيم الأدغال، والمناظر المألوفة إلى الماضي، ووقفت مترددة، عازفة عن ترك الزورق الذي شعرت فيه بالأمان، حتى استدعى الأمر صرخة آمرة من «رامون فيغاس» لتخرجها من خوفها.

– تحركي بسرعة يا آنسة، سنكون في انتظار الطعام بعد نصف ساعة.

وقفزت من مكانها، وقد احمر وجهها، وجميع من حولها يبدو عليهم الرضا بما أنيط عليهم من أعمال، والمكان حولها يموج بالعمل. أما هي فلم تكن لتعرف كيف تعد الطعام، أو حتى نوعية هذا الطعام الذي يجب أن تصنعه، ولم تكن لتتصور قط أنها ستسعد بسماع صوت «برانستون» قريبًا منها، مثلما حدث الآن عندما سمعت صوته، فقد قفزت لمواجهته بارتياح واضح. قال لها عارضًا خدماته:

– سأشعل النيران، في حين تجمعين أنت الأطباق وأدوات الطهي، ستجدينها جميعًا في هذه الكومة هناك! ثم استطرد قائلا:

– هل تعرفين كيف تصنعين البوردج والقهوة؟

– بوردج وقهوة؟ هل هذا هو كل شيء؟

– هذا المساء فقط، ولكن لا تنتظري هذه الرفاهية كل يوم يا دميتي. سوف نعيش على الأرض بضعة أسابيع قادمة.. وهذا معناه أننا سنأكل بعض الحيوانات، وذيل التمساح المسلوق، أو الأسماك الوحشية. وأطلق ضحكة ساخرة واستطرد:

– كل ما أستطيع أن أعدك به، هو أنني لن أتركك تأكلين طعام الوطنيين هنا المصنوع من الديدان والثعابين! في خلال أي يوم من أيام الرحلة. وشعرت «تينا» بالارتياح بعد أن استطاعت خلال نصف ساعة من العمل السريع المكثف، أن تنتهي من إعداد الطعام، وألقت نظرة أخيرة على

www.rewity.com

القدر الموضوع فوق نيران المعسكر، ثم راجعت عدد الأطباق لتتأكد وجود العدد الكافي لكل هؤلاء الرجال الذين انتهوا الآن من إعداد المعسكر، وبدا المكان ساحرًا على أضواء النيران، والمصابيح التي أحضرها الرجال لاستعمالها في مناطق عملهم، حيث كانوا يعملون، تنفيذًا لأوامر «رامون فيغاس» بتنظيف الأرض من أي حشرات تتناثر حولهم، وإقامة الأسرّة المعلقة بين الشجر لينامو عليها. وحاولت «تينا» أن تبعد عن ذهنها الساعات الطويلة التي ستقضيها فوق سريرها المعلق منتظرة أخطارًا داهمة لا تعرف عنها شيئًا.. وركزت تفكيرها في العمل الذي تقوم به، قائلة لنفسها إنها يجب أن تعيش الحياة لحظة بلحظة.

وضاعت كل مخاوفها، عندما أحاطت بها قبيلة من الرجال الجائعين طالبين الطعام، وبسرعة، ملأت الأطباق بالبوردج والأكواب بالقهوة ذات الرائحة الشهية، وفي لحظات كانت نيران المعسكر قد أحيطت بدائرة من الرجال يتحدثون في كل شيء، مسرورين بهذه الوجبة البسيطة الشهية. وكانت «أنيز غارسيا» تجلس قرب «رامون فيغاس». أما «تينا» فقد أخذت طبقها واقتربت من المجموعة لتجد «برانستون» قد حجز لها مكانًا بجواره، فاتجهت نحوه، وقد أعجبها أنه اختار مكانًا بعيدًا عن الباقين، على الرغم من أنها كانت راغبة في صحبتهم. ويبدو أن «أنيز» أيضًا شعرت بالارتياح لبعدهما عنها، فعندما ألقت «تينا» عليها نظرة سريعة، لمحت بريق الانتصار، والرضا الخبيث، واضحًا في ابتسامتها. وأشاحت «تينا» بوجهها بسرعة، فقد كان ملطخًا بالبخار وبدا عليه المجهود الذي بذلته في إعداد الطعام، في حين أن «أنيز غارسيا» تلمع بالراحة والنظافة، وهي تأكل بشهية من الطعام الذي بذلت الجهد

والعرق في إعداده، وشعرت «تينا» بالظلم، فمهما كان العمل الذي كلفت به «أنيز»، فإنه بلا شك لا يستدعي منها القيام بأي مجهود، فها هي جميلة ورائعة كالعادة. ارتفع صوت «جوك سوندرز» الاسكتلندي مخاطبًا القائد:

– هل أنت راضٍ عن الرحلة التي قطعناها يا سيد؟ هل سنبقى هنا لنبدأ في دراسة مشاريعنا عليها أم سنتحرك غدًا؟ وصمت الجميع انتظارًا لرد «رامون فيغاس» الذي قطع محادثته مع «جوزيف روجرز» ليرد على «سوندرز»:

– كان هذا ما أناقشه مع «جوزيف روجرز» وقررنا ألا نبقى هنا مدة أطول من الضروري، خاصة وأننا جميعًا نشعر براحة أكثر عندما نعبر دوامات «سنغابريل» الرهيبة ونتركها وراءنا. وردد «فيلكس كريللي» الكلمة متسائلا:

– هل هي رهيبة بالفعل؟

– نعم، إنها تبدأ بعد عدة كيلومترات قليلة من هنا. وخطورتها في أنها تمتد مسافة طويلة، فهي تسعة عشر دوامة سريعة رهيبة. وعندما يضيق نهر «النيغرو»، ويمتلئ بالصخور الضخمة والحادة تتناثر هذه الدوامات بينها، وهي ليست أخطر ما سنقابله في طريقنا، فهناك ما هو أخطر منها ينتظرنا في نهر «أورينوكو»، لكنها تمثل العقبة الخطيرة الأولى في رحلتنا، وهي تتحدى شجاعة كل فرد هنا. ورفع يده طالبًا الصمت من الجميع. وبطريقة تلقائية، شعرت «تينا» بالتوتر. فخلال الصمت سمعت صوتًا كأنه هدير الرعد يرتفع فوق الأشجار العملاقة، وعرفت الصوت، إنه اندفاع المياه الرهيب، وتوقف قلبها عن الخفقان. ترى،

ما هي المخاطر التي يمثلها هذا الصوت؟ قالت «أنيز»:

– لكننا سنكون في أمان بالتأكيد ونحن في الزورق يا «رامون»؟ وتعلقت عيناها بوجهه وهي تنتظر الجواب، وبقي فمه صارمًا، لكنه وضع يده على يدها وضغط عليها مطمئنًا ثم قال:

– أعتقد أن «جوزيف» يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال أكثر مني، إن مصيرنا مرهون بمهارته وحكمته! وتحرك «جوزيف» قلقًا، وعيناه تلمعان وهما تحومان حول دائرة الوجوه القلقة:

– قد ينقلب بنا الزورق وسط الدوامات، وسوف تكون الصخور وبقايا الجزر الخطرة خطرًا رهيبًا إذا سقطت فوقنا. وهذا خطر يقلقني ولكني متأكد أننا سننجح. وأشاع شعوره بالثقة ارتياحًا بين الجميع، واستراح جسد «تينا» المتوتر، وبطريقة غريبة استطاع «روجرز» بصوته الواثق الهادئ المتفائل أن يجعل كل واحد منهم يشعر بأن هذه الكوارث التي تحدثوا عنها، لن تحدث أبدًا.

وبدأت الأحاديث تتقطع في أثناء تناول الطعام، فقد كان الرجال مرهقين وأخذوا ينسحبون واحدًا بعد الآخر إلى أسرّتهم لينالوا أكبر قسط من الراحة قبل اليوم التالي الذي ينتظرون فيه الكثير من الأحداث، حتى لم يبق غير «رامون» ومعه «أنيز»، و«برانستون» مع «تينا» يواجهون بعضهم البعض عبر النيران. وتجاهل «برانستون» أعراض التعب والإرهاق التي بدت واضحة على وجهها، وحاجتها الشديدة إلى النوم، حتى أن رأسها كاد يسقط على صدرها أكثر من مرة، وأصر على أن يواصل أحاديثه. وبينما كانت هي تفكر في أكوام الأطباق والأواني التي كان عليها أن تنظفها قبل النوم، كان «برانستون» ما زال مصرًا

على أن يستمر في استعراض مغامراته وتجاربه في رحلاته المختلفة. وأصبح متعذرًا على «تينا» أن تفتح عينيها، ويبدو أن السيد «رامون» كان مشغولا عن رفيقته بملاحظة «برانستون» و«تينا» إلى الدرجة التي جعلتها ترتعد عندما تسلل صوته عبر المسافة التي تفصلهما، وكأن سهمًا جيد التصويب انطلق إليها.

– يا آنسة، هل يجب أن أذكرك بأن عليك عملا يجب أن تؤديه؟

وقفزت بطريقة لاإرادية عندما سمعت صوته الآمر، لكن الإرهاق منعها من أن تجيب فورًا، ومرت لحظات قبل أن تجمع أفكارها لترد. ولكن بطريقة مستاءة، تولى «ثيو» الرد:

– سأساعدها، فأنا لن أسمح لـ «تينا» بأن تقوم بكل هذا العمل وحدها!

وبوجه متجهم أشار إلى أكوام الأطباق والأواني المتناثرة. وبعينين ضيقتين مصوبتين بكل إصرار إلى «برانستون»، قال «رامون»:

– يبدو أنك لم تسمع ما قلت يا «برانستون»، لقد أصدرت أمرًا مشددًا، بأن على كل فرد منا أن يقوم بواجباته بنفسه، قلت إنني لن أحمل معي سُيّاحًا هل تذكر؟ إنني أعني ما أقول، إن لدى الآنسة «دونيللي» وقتًا كافيًا للقيام بأعمالها، ولكن بما أنها تفضل قضاء الوقت في الثرثرة معك، فعليها أن تتحمل ذلك. فاسود وجه «برانستون» غضبًا، وارتعدت «تينا» وهي تراه وقد أحكم قبضته وكأنه يستعد للهجوم على الرجل! وهمست بسرعة:

– أرجوك يا «ثيو»... أنا لا أحتاج إلى مساعدتك، الحقيقة أنني مصرة على القيام بواجباتي بنفسي! ورفعت رأسها ناظرة إلى «أنيز» التي لم تكن تخفي سرورها لما تشاهده وقالت:

www.rewity.com

– يكفي وجود شخص واحد مدلل في الرحلة! وذهلت «أنيز» لهذا النقد، وقبل أن ترد بادر «فيغاس» إلى التدخل وقال:

– يبدو أن «دونيللي» متعبة، وبما أنه من السهل إثارة غضبها حتى في الظروف العادية، فمن الأفضل يا «أنيز» –أنت والسيد «برانستون»– أن تأويا كلٌ إلى فراشه الآن. ونقل بصره بينها وبين «برانستون». ومع أن كلامه كان يبدو وكأنه طلب، إلا أن لهجته كانت كالأمر الصارم وبادرت «أنيز» بإطاعة أمره فقالت:

– حسنًا، أيها العزيز «رامون». وأحنت رأسها نحوه، وهمست بجملة ناعمة باللغة الإسبانية:

– طابت ليلتك يا «كارامورو». ولاح شبح ابتسامة رقيقة على فم «رامون» المتوتر، لكنه عندما استدار ليواجه «برانستون»، كان تعبير وجهه قاسيًا كالحجر. وقال له:

– وأنت يا «برانستون»؟ وتكهرب الجو وكل منهما يواجه الآخر في صمت، وانهمر العرق غزيرًا يكاد يغرق وجه «تينا» وهي ترى عيونهما تلتقي في تحدٍ، ولم تعد تحتمل الانفعال أكثر من ذلك فهمست:

– أرجوك يا «ثيو».. افعل ما طلبه منك! وغضب «ثيو»، وألقى نظرة تفيض بالكراهية على «رامون»، ثم استدار على عقبيه وتركهما وحدهما.

* * * * *

كانت يدا «تينا» ترتعشان وهي تجمع الأطباق. وكان «فيغاس» يقف في الظلام، خارج مجال الضوء الذي ينبعث من المصابيح الصغيرة، وهو يراقبها وكان الموت أفضل عندها، من أن يرى تعاستها وضعفها بعد ما حدث. ولم تصدق نفسها وهي تستمع إلى صوته الذي يفيض بالرقة، فليس هذا أبدًا هو صوت هذا الرجل القاسي. قال:

– يا آنسة، يبدو عليك الإرهاق. دعيني أساعدك! ومنعتها المفاجأة من الكلام، وحتى عندما امتدت يده السمراء القوية لتأخذ الطبق من يديها المرتعشتين، بقيت لا تصدق نفسها، وظلت – وهي مبعدة رأسها بشعرها الذهبي المرفوع إلى أعلى – تعمل وهو إلى جانبها، حتى انتهى تنظيف آخر طبق دون أن تنطق بحرف واحد، أو تلقي نظرة إليه، ثم استدارت لتذهب. وامتدت يده لتقبض على ذراعها بقوة، والتقت عيناها المتسائلتان بنظراته الرقيقة وسألها:

– يا آنسة «دونيللي»، هل تغفرين لي؟

– ما الذي أغفره لك يا سيد؟

– هذا العقاب طبعًا! لقد استثارتني طريقتك الإنجليزية المتعالية، فوضعت على كتفيك الرقيقتين هذا الحمل الثقيل! وتوقفت أنفاسها بتأثير هذا السحر غير المتوقع الذي يصدر منه، وعندما ابتسم، شعرت بشيء ما في داخلها يدفع قلبها بسرعة إلى الإحساس بجاذبيته، وشعرت فجأة بالاضطراب، وبأنها مفعمة بأحاسيس حارة تتدفق من تأثير لمسة أصابعه على ذراعها، ولم يكن هو يشعر قط بهذا التأثير الخطير الذي يحدثه في نفسها، كانت نظراته الآن كنظرات طفل صغير بريء يطلب الغفران. فَقَدَ فجأة سلطته، أصبحت لمساته رقيقة وحانية، كما تكون

لمسات القوي عندما يحنو على الضعيف. لكن «تينا» كانت تشعر بأن قوته هائلة، يجب أن تهرب منها كما تهرب من كل خطر مجهول، فتخلصت من قبضته، وأخذت تخطو إلى الوراء بسرعة، حتى انتهى الطريق بشجرة ضخمة. فنظرت حولها يائسة تبحث عن طريق للهرب، في حين تحرك هو إليها وسحابة من الدهشة الحقيقية تغطي وجهه، وقال لها بهدوء:

– هذه هي المرة الثانية التي تهربين فيها بعيدًا عني يا آنسة. ما الذي يضايقك مني؟ كانا قد تحركا بعيدًا عن مجال الضوء، ولذلك انحنى عليها ليتأمل جيدًا هذا الحزن الثقيل الذي يلقي ظلاله على وجهها الأبيض وعندما اقترب منها ضغطت على جذع الشجرة الضخم، وكأنها تنحت في كتلتها الصلبة طريقًا للهرب، ولكن ليس هناك مهرب من نظراته الفاحصة. وحتى هذا الظلام الأسطوري الكثيف، في الليل الاستوائي، لم يستطع أن يخفي الخوف والرعب من عينيها الواسعتين.

– هل أنت خائفة مني؟ وصدمتها لهجته، وسارعت إلى الإنكار:

– لا، طبعًا لا. اقترب منها ووضع يديه القويتين على كتفيها فشعرت بالنار تندلع في جسمها من لمسته خلال القميص الخفيف الذي ترتديه، في حين يدفعها الانفعال إلى الحذر، فقال لها:

– إذن لماذا أشعر كلما نظرتِ إليَّ كما لو أن أحد الحيوانات الأسطورية ظهر لطفل في أحلامه؟ لماذا تعكس عيناك كل هذا الخوف؟ مازلتِ إلى الآن تريدين إنكار هذه الحقيقة. نظرت إليه بجزع وفجأة سألها وقد اكتأب وجهه:

– كم تبلغين من العمر؟

– هذا ليس من شأنك يا سيد.

– أنت مخطئة. فهذا من صميم عملي، يجب أن أعرف ما إذا كان من يرحل معي خبيرًا في الرحلات أم لا. وأنت يا آنسة «دونيللي»، لا يبدو أنك في سن تسمح لك بالذهاب حتى الآن إلى أكثر من صفوف المدرسة. كان يتحدث بقوة، لكن نظراته عكست عدم ثقته بما يقول. وألقت «تينا» برأسها إلى الخلف، ونظرت إليه بترفع بارد، ثم قالت:

– قمت برحلات عديدة يا سيد، إلى معظم أقطار العالم، وخلال كل أنواع المخاطر والأحوال المختلفة، وفوق العديد من المناطق الصعبة. وشعرت بالثقة، فقد كان كلامها صادقًا وتابعت كلامها لتزيد من إقناعه:

– أعتقد أنه يجب أن أحمل كلامك عن سني على محمل المجاملة. ولكن، أرجوك.. احتدَّ صوتها، في محاولة للدفاع عن نفسها، والهجوم على ثقته الهائلة بنفسه:

– لا تحاول أن تقوم بتجاربك لتؤثر فيَّ بسحرك اللاتيني، فسوف تجدني محصنة ضده تمامًا. وأقترح عليك... وهنا تحولت لهجتها إلى البرود الكامل لتنهي كلامها:

– إذا كنت تشعر بأنك تحتاج دائمًا إلى وجود العنصر النسائي معك. فيجب أن تركز جهودك في الآنسة «أنيز» وحدها. اصفر وجهه، وإن لم يظهر شحوبه في الظلام، ولكن ضغط أصابعه على كتفيها عكس الغضب الذي يموج في نفسه، في حين تحملت هي الألم وكأنه عقاب على وقاحتها، وأغمضت عينيها وهي تمنع نفسها بصعوبة من إطلاق صرخة تحطم بها السكون الذي يحيط بهما. كانت تعرف أنه إذا تكلم، فسوف تكون كلماته كلها شتائم ولعنات.. ولكن كان الأسهل أن تحتمل

احتقاره من أن تدعه يكتشف مبلغ الاضطراب الذي يثيره في كيانها، فإن رجلا قبله لم يكن له هذا القدر من الجاذبية التي تحسها نحو «رامون فيغاس». سبق لها الخروج مع بعض الرجال، ولكن لم يكن لأي منهم أي تأثير فيها إذا قورن بهذه المشاعر التي تنتابها فور أن يلمسها. وارتعدت. وعندما تكلم، تداعى قلبها حزنًا وألمًا لهذه الهزيمة البادية في كلماته القاسية:

- يا آنسة، لقد أقنعتني. لم يعد مظهر شبابك الخادع يقلقني، إن لسانك الحاد كفيل بتهيئة الحماية الكاملة لك، ولن يعاني أية مشكلة مع أحد من الرجال، وإذا كنت قد سافرت كثيرًا فأعتقد أنه لم يعد عندي شك في أنك ستحسنين التصرف، وأعتقد أنك لن تجدي في كلامي لك أي مديح أو تملق، ولتكوني على ثقة بأني أنفذ ملاحظاتك بكل دقة، وأعدك بأنك لن تشعري بعد اليوم بأنني شخص جذاب.

ثم تركها واختفى في الظلام. وعندما استلقت في سريرها المعلق، وقد التفت حولها شبكة من القماش الخفيف تحميها من البعوض، لم تكن لتفكر إلا في شخص واحد: «رامون فيغاس»، الرجل الذي يخفي وراء قسوته كل هذه الرقة وهذا الحنان، ولمساته التي أشعلت نيرانًا في عواطفها، ما تصورت يومًا أنها ستوقظها بكل هذا العنف. هذه العواطف التي يجب أن تختفي تمامًا قبل أن تصبح موضعًا للسخرية، سواء من «رامون» نفسه أم من «أنيز»، التي سيسعدها أن تعرف هذه الحقيقة! مهما حدث، يجب أن تبتعد دائمًا عن طريق «فيغاس»، إذا أرادت أن تحتفظ لنفسها بهذا الوقار الذي تتظاهر به.

في اليوم الثاني شعر أعضاء الفريق بشوق إلى بداية المرحلة الثانية من

رحلتهم، ولم تكن «تينا» تحتاج إلى من يدعوها إلى اليقظة، وإلى ترك هذا السرير المعلق، بعد ليلة أخرى من النوم المتقطع، الذي صاحبه اعتقادها بأن العمل، أي عمل، هو راحة بالنسبة إليها، ولذلك، فعندما استيقظ الجميع فوجئوا بهذه الرائحة الجميلة للقهوة، وعلى الرغم من أن شهيتهم كانت أقل من الأمس، إلا أنهم رحبوا بحرارة بهذه الأطباق الشهية من البوردج... وامتلأت بالفخر لعبارات الإعجاب التي أغدقوها عليها، امتداحًا لطعامها الشهيّ، وهم الذين كانوا في دهشة من ميلها إلى الوحدة، مع أنهم مازالوا يرحبون بها لتنضم إلى هذه المجموعة التي توطدت بين أفرادها روح الصداقة والألفة.

لقد أصبحت معروفة بينهم الآن باسم «العروس الثلجية» وهو تعبير من كثير من التعبيرات والملاحظات التي تعبر عن رأي الرجال فيها، والتي كانت تستمع إليها في ألم، في بداية الأمر فكرت في أنه لن تهمها ما يساورهم من ظنون فهم ليسوا سوى مجموعة من الأفراد لن تراهم مرة أخرى بعد نهاية الرحلة، ولكنها الآن تشعر بأنها ضائعة، غير مرغوب فيها، وبأنها وحيدة تمامًا، ومع أنها كانت تعرف أنها هي التي فعلت كل هذا، وأن الخطأ خطؤها هي، فهي التي رفضت كل صداقة عُرضت عليها، ولكن ذلك لم يحلْ دون أن تشعر بالألم وقسوة الوحدة.

وبعد الفطور، خلا المكان مرة أخرى تمامًا، ولم يعد هناك أثر يدل على أن القوم كانوا فيه والمعدات القليلة التي أنزلوها من القارب عادت مرة أخرى إليه، وبدأ زورقهم الطائر في الانزلاق إلى الماء وهم في داخله، وساد الصمت تمامًا، واختنقت الأصوات في صدورهم، فور دخول الكابتن «روجرز» إلى غرفة القيادة. وتشبثت «تينا» بذراع مقعدها

وهي تشعر بأصوات المحركات ترتفع، وكانت كل لحظة تحمل معها خوفا جديدًا، وشكوكًا متزايدة حول الأخطار المحتملة لكنها تنفست بارتياح، وارتخى جسدها عندما استقر المركب مرة أخرى في الماء، وسمعت صوت هديره!

شعرت بكل متاعبها تثقل كاهلها، وتحت وطأة أعصابها المتوترة، والنوم الذي قاطعها في الليالي السابقة، سقط رأسها على ظهر المقعد وهي تراقب الأحراج التي لا تنتهي، حتى أصبحت كتلة خضراء بلا نهاية، وصمت الجميع، وهم يتصورون الأخطار التي سيواجهونها بعد ساعات قليلة، فعندما يقام المعسكر، يكون لكل منهم عمل كاف يشغله، أما الآن فليس هناك ما يفعلونه سوى الانتظار. وتحولت أفكارها إلى عمتها. كانت تعرف أنها تنوي أن تتابع تقدم البعثة يوميًا على خريطتها. فقد حفظت خطة سيرهم عن ظهر قلب. وشعرت «تينا» بالحرارة وهي تحس بأنه على الرغم من البعد عنها، فإن عمتها معها في كل خطوة تخطوها في رحلتها.

وكانت الأيام الأخيرة التي سبقت رحيلها ثم وصولها إلى «مانوس» مشحونة بالقلق، إلى الدرجة التي جعلتها لم تستطع أن تستوعب كل التعليمات التي كانت عمتها توجهها إليها. وكان الخوف يشغلها حتى أنها لم تعرف حقيقة ما تحتويه هذه التعليمات. لكنها الآن وهي تسير فعلا في قلب «الأمازون»، في اتجاه مخاطر «كازيكوير»، بدأت الذكريات تضغط عليها.. فأغلقت عينيها في محاولة لاستعادة ما قالته لها عمتها. وشيئًا فشيئًا بدأت الصور تتداعى في مخيلتها، حتى استطاعت وبالتدريج أن تسترجع كل ما قيل لها:

«وصلت إلى «كيو» وبطريقة غير معقولة، ومن بين آلاف الكيلومترات من الكروم الكثيفة إشاعة تقول إنه في مكان ما في أعالي نهر «أورينوكو» يعيش واحد من المواطنين الذين لم يتلقوا أي قسط من التعليم، ويُعرف بأنه أحد أطباء الأعشاب، وأنه يعالج المرضى بمرض «النقرس» بدواء مصنع من الأعشاب، وبخاصة من نبات «الكاسيا» الذي يطلق عليه المواطنون اسم «سارانغوندين». كان من الأحلام الخاصة بالعلماء، بما فيهم عمتها «كريس»، أن يعثروا على علاج لواحد من أكثر الأمراض إيلامًا للإنسان، وهو مرض النقرس. ومع أنهم كانوا يتوقعون اكتشاف هذا النبات، إلا أن الأمر بالنسبة إلى «تينا» لم يكن ليعني أن تبذل جهدًا لتعثر على هذا الطبيب. لقد كانت المغامرات والرحلات لا تعني بالنسبة إليها هذه الأهداف التي كانت مهمة بالنسبة إلى عمتها، أو كما كانت بالنسبة إلى عائلتها، ولكن «تينا» وجدت فجأة أن فكرة تحقيق الشفاء للإنسانية بالعثور على علاج لهؤلاء المساكين الذين يشفيهم من المرض، تنبثق فجأة أمام عينيها لتصبح هدفًا مثيرًا. وفجأة، وجدت نفسها قلقة على هذه السمعة العظيمة التي حققتها عائلتها في حربها ضد الأمراض.. وتركز الضوء فيها ليظهر أنانيتها وعدم فهمها للدور الكبير الذي قامت به عائلتها نحو هؤلاء الذين كانوا يحتاجون إلى المساعدة، وغمرها شعور بالخجل من هذه الأحاسيس التي اجتاحتها في طفولتها، والتي صورت لها أن عائلتها كانت تفضل المغامرات والرحلات على تهيئة الجو العائلي والاستقرار في طفولتها، وكأنها فراشة تحاول الطيران للمرة الأولى! وقد جاهدت للخروج من عقدها الخاصة لتكتشف عائلة جديدة عظيمة. كانت فخورة بهذا الاكتشاف، وشعرت بدافع قوي لأن تتبع

خطواتها، وفجأة تبدد كل التعب والإرهاق الذي كان ينتابها، عندما فكرت في الفائدة التي ستعود على آلاف المرضى الذين يعانون الآلام المبرحة.

كانت عمتها «كريس» تشكو دائمًا من عدم اهتمامها باكتشاف النباتات، وكانت تستغرب اختفاء هذا النوع من الاهتمام في فرد من أفراد العائلة التي اقترن اسمها بالمغامرات، ولكن «تينا» أدركت أنها كانت قادرة على هذا العطاء، الذي كان كامنًا في نفسها، وربما كان خافيًا عنها نتيجة لهذه الطفولة التعسة، ولأحلامها الرهيبة، والحذر الذي كانت تشعر به، ولكنه كان دائمًا موجودًا في باطنها. وأدهشها هذا الاكتشاف: هل هو نوع من الاتصال الروحي؟ هل كانت «كريس» على الرغم من هذه الكيلومترات التي تفصلها عنها تشجعها لتأخذ الخيط الذي تركته عائلتها، وتتابعه؟ وفي أثناء البحث عن إجابة لهذا السؤال، تولد تصميم في داخلها، تصميم يحثها على بذل كل جهد للعثور على طبيب الأعشاب.

وتذكرت جيدًا، لقد أخبرتها «كريس» بأن هذا الطبيب يعيش مع قبيلة تدعى «جواهاريبوز». وبما أنه ليس هناك دليل قاطع على حقيقة هذه الإشاعة، فقد كان عليها أن ترجو «رامون فيغاس» أن يغير من طريقه المرسوم. وارتعدت «تينا»، عندما فكرت في أنها ستحتاج إلى طلب المساعدة من «رامون» الذي يبدو شديد الغضب منذ ليلة أمس، وهو يتجاهل وجودها تمامًا، والذي كانت تصرفاته وتعبيرات وجهه الغاضبة والصارمة مثار تعليق الرجال طوال اليوم. لقد علق «فيلكس كريللي» على ذلك بأن «فيغاس» يعيش حالة من القلق، خوفًا عليهم من

أخطار الدوامات القادمة، لكن «تينا» كانت تشعر بالذنب والمسؤولية عن هذه الحالة النفسية السيئة التي يعانيها منذ الصباح، وكانت تحتاج إلى الشجاعة للتقرب إليه. ولكنها كانت متأكدة أنها ستقدم على ذلك إذا ما واتتها الفرصة، فإن الكرامة الجريحة يجب ألا تقف حائلا أمام خير الإنسانية. وألقى «برانستون» بجسمه الضخم على المقعد المجاور لها وقال:

– هل بدأت تشعرين بالخوف يا دميتي، إنك تبدين كما لو كنت في انتظار كارثة؟ وألقى بيده الخشنة المغطاة بالشعر الأسود الكثيف على كتفها، وواصل كلامه:

– لا تدعي تهديدات «رامون» تخيفك أو تضايقك، فأنا هنا يا عزيزتي. واستعادت «تينا» وعيها، تاركة خططها وأفكارها، وكانت نظراتها إليه نظرات المذهول الذي لا يعرف شيئًا. ولم تفهم السبب الذي من أجله يحاول إعادة الطمأنينة إليها إلا في لحظة التفاتها إلى جانب الزورق، ورؤيتها للنشاط المتزايد حولها. لقد عاشت طوال الساعات السابقة ونظراتها معلقة بهذه الكروم التي تمتد إلى ما لا نهاية، في بعض الأحيان كانت قريبة إلى الدرجة التي جعلتها تستطيع لو مدت يدها أن تصل إليها، وفي أحيان أخرى كان النهر يتسع حتى أنها لا ترى أي ظل أخضر على الإطلاق. ولكن، على كل الأحوال، سواء أكان النهر متسعًا أم ضيقًا، فقد كان يجري في هدوء خامل، متجهًا بهم إلى هدفهم. أما الآن، فقد نظرت حولها مضطرة، لترى القلق يسيطر على كل الوجوه حولها حتى على هذا الوجه القاسي، وجه «كارامورو». فقد كانوا يقتربون بسرعة من منطقة الدوامات الرهيبة، وملأ الرعب

عينيها وهي تنظر بعيدًا إلى النهر الذي تحول إلى كتلة من الزبد الأبيض تهدر مندفعة في طريقها بين حافتين من الصخور الحادة كالموسى، أو كتل الصخر الضخم الرهيب التي تعترض طريق الأمواج الرهيبة التي ترتفع ثلاثة أو أربعة أمتار لتصطدم بالصخور في عنف وتعود لتصطدم بزورقهم وكأنها تسلمهم من عائق في النهر إلى آخر. ولم تتصور «تينا» قط أن زورقهم المسكين يمكن أن ينجو من هذه المياه الرهيبة. وتضاعفت مخاوفها عندما اقتحم القارب الصغير أول كتلة من المياه المندفعة والتي التفت حوله في قوة رهيبة.

وفجأة، توقفت أصوات المحرك. وقبل أن يتكلم أحد، اهتز الزورق هزة قوية، جعلتهم جميعًا يترنحون فوق كراسيهم قبل أن يتوقف تمامًا، وكأنه قد سقط بين براثن شلال خطر. والغريب أن أحدًا لم ينطق بكلمة، ولم يصدر عنهم أي صوت، وإنما أمسكوا جميعًا بمقاعدهم، وتعلقت أنظارهم بـ«جوزيف روجرز» و«فيغاس»، وهما في غرفة القيادة يجاهدان حتى لا ينقلب بهم الزورق، وبعد ثوان طويلة من الانزعاج. بدأ صوت المحرك يعود إلى الحياة، وعاد هديره يرتفع بهم فوق زبد الموج الأبيض.

وعندما شعر البحارة بأن الطريق أصبح واضحًا أمامهم الآن، أدركوا أنهم تجاوزوا فعلا دوامات «سنغابريل» وراءهم، فاندفعوا جميعًا إلى غرفة القيادة ليقدموا التهاني الحارة إلى «جوزيف روجرز» الذي وقف سعيدًا الآن ومعه «رامون فيغاس»، الذي بدا مرتاحًا. وقامت «تينا» بحركة لتشاركهم التهنئة، وتبلغهم شكرها وإعجابها بهذه الطريقة التي استطاع بها الرجلان أن يعبرا ما تصورت أنه المستحيل، لكن

«ثيو برانستون» مد يده ليمنعها، وعبر صوته عن الغيرة والحقد وهو يقول:

– أنت أيضًا تخضعين لسحر هذا البرازيلي. ولم يذكر قط ما حدث بالأمس. وتصورت «تينا» أنه قرر تجاهله، لكنها عرفت الآن أنه لم ينس قط، وأنه أغلق قلبه على ذروة الحقد والكراهية للرجل الذي أجبره على الانسحاب! وتمتمت وقد ارتفعت الدماء إلى وجهها:

– لست أدري ماذا تقصد.

– إذن سأقول لك بكل وضوح. قالها بصوت ساخر، وأدار لسانه حول شفتيه المكتنزتين كالصياد عندما يواجه فريسته التي لا حول لها ولا قوة، إلى الدرجة التي جعلتها ترتعد من الخوف:

– في المستقبل، أتوقع منك أن تعامليني بطريقة تجعل «رامون» وعصابته يعتقدون أننا أكثر من أصدقاء! وامتقع وجهه غضبًا، عندما لاحظ أنها تستعد للاعتراض، فاشتد صوته قسوة وقال مهددًا:

– إذا لم تخضعي لهذا الاتفاق، فلن أتردد أبدًا في إعلان حقيقتك أمام «فيغاس» أنك زائفة وغشاشة ومحتالة صغيرة. ورفعت «تينا» رأسها، ولم يبد على صوتها أي دليل على الاضطراب الذي تعانيه، وقالت:

– إنني متأكدة أنك تستطيع أن تفعل ذلك، وأنك ستكون سعيدًا أيضًا وأنت تقوم به، فليس هناك شك في أنك معتاد التجسس على الناس، ولكن ما رأيك فيما إذا طلبت منك أن تقوم الآن وتفعل ما يحلو لك؟ ما الذي أخاف منه الآن؟ لقد أبحرنا بعيدًا، وليس هناك طريق للعودة الآن. ولا أظن أن «رامون فيغاس» يغامر بالعودة بي فوق الدوامات الرهيبة، خصوصًا إذا عرف أن بقائي معكم هو في الواقع عقوبة لي،

أشد من العودة! وضيّق «برانستون» عينيه وهو ينظر إليها، في حين واصلت هي المقاومة:

– وما رأيك في صورتك أنت في نظر الباقين عندما يعرفون أنك تبتزني وتهددني؟ وألقت بسهمها الأخير، مستطردة:

– سيبعدونك عن أية رحلة طوال حياتك، خاصة عندما يصبح عملك هذا معروفًا للجميع.

– أنت تمزحين يا دميتي. لماذا لا تعترفين بالهزيمة وتخضعين لشروطي؟ لن تتحملي أبدًا أن يشك «رامون» في حقيقة شخصيتك. على كل حال، أنا لا أطلب منك أكثر من أن تسعديني بصحبتك، وابتسامة أو اثنتين فما المانع من قبول هذه الرغبة؟ كثيرات من السيدات يتمنين ذلك. وبينما كان هو يمجد نفسه، كانت «تينا» تحاول جمع أفكارها المشوشة! إنها تكره هذا الرجل وتشمئز لمجرد لمسة منه، ولكن إذا كان كل ما يطلبه منها ليس سوى الصداقة، فمن الغباء أن ترفض ذلك. وأخذت تُذكر نفسها، كيف كان وجوده بالأمس معها مفيدًا لها، وربما احتاجت إليه وإلى خبرته خلال الأسابيع القادمة في قلب الأدغال، حتى يمكنها أن تتجنب الأخطاء، وأن تستمر دون أن يظهر منها ما يفضح عدم خبرتها. والأهم من ذلك، يجب أن يظل صامتًا، فكيف يمكن أن تقنع «رامون فيغاس» بمساعدتها في العثور على طبيب الأعشاب، إذا عرف حقيقة شخصيتها المزيفة، وأيضًا فإن الدوافع الجديدة التي ولدت في نفسها أخيرًا ليست كافية كي تطرد مخاوفها تمامًا. وعلى ذلك، فإن صحبة «ثيو برانستون» على الرغم من أنها لا ترحب بها قد تكون خيرًا في بعض الأحوال. فاتخذت قرارها، وشعرت بأنها تحتاج إلى شيء من

الدبلوماسية كي تتحدث إليه. ابتسمت وقالت:

– حسنًا إنني أقبل اقتراحك مقابل عدم التحدث عن حقيقتي إلى «رامون فيغاس»، ولكن.. وأضافت بعنف، عندما لاحظت ابتسامة الانتصار على وجهه، ومحاولته للإمساك بيدها:

– سيد «برانستون». ليس في نيتي إطلاقًا أن أسمح لك بأن تأخذ حريتك في التصرف معي، يجب أن تذكر ذلك جيدًا.

– إذا كنتِ قد وافقت على صداقتي، فما رأيك في أن نبدأ بأن تناديني باسمي الأول «ثيو». وأحنت رأسها موافقة. إن كل أعضاء البعثة رفعوا الكلفة فيما بينهم، حتى «رامون» صار يتعامل معهم بالطريقة نفسها، ويناديهم جميعًا كلاً باسمه، ما عداها هي، فقد كان تصرفها البعيد عن التجاوب مع المجموعة لا يشجع أحدًا على الاقتراب منها، بل على العكس من ذلك، فقد كان يسبب لهم الاضطراب. وفجأة سمعت صوت الآنسة «أنيز»، فرفعت رأسها بسرعة، لتراها واقفة تنظر إليها، وبجوارها «رامون فيغاس». قالت «أنيز» بلهجة هازئة:

– ما رأيك يا «رامون»، ألا يبدو عليهما الانسجام؟ لن تكون مفاجأة لو أنهينا هذه الرحلة بحفل زفاف. وأطلق «ثيو» ضحكة صاخبة، وانحنى ليمسك بيد «تينا». ويضغط عليها. فشعرت بالغضب، واضطرت إلى الصمت، وإلى احتمال نظرة التجاهل الباردة التي ألقاها عليها «رامون» وهو يقول:

– هل شعرت بأية متاعب ونحن نعبر الدوامات؟ أرجو ألا يكون ذلك قد حدث يا آنسة.

– طبعًا لا. كان هذا هو الرد السريع الذي صدر عن «ثيو».. وهو يشعر

بالثقة وهي بين يديه، مما دعاه إلى أن يستطرد:

– ألم أقل إنني وعدت بحمايتها! فقال «رامون» بصوت حزين:

– إني متأكد أنك قمت بواجبك خير قيام. فقالت «أنيز» وهي تتعلق بذراع «رامون» في دلال:

– هيا يا «رامون».. يجب ألا نضايق العصفورين العاشقين أكثر من ذلك! وفي غضب ظاهر قالت «تينا»:

– يبدو يا آنسة «أنيز»، أنه من المستحيل أن تقوم صداقة بين الجنسين في بلادكم، كما يحدث في بلادنا، فإذا كانت هذه هي الحقيقة، فسأكون من الكرم بحيث أغفر لك ضيق تفكيرك، بدلا من أن يضايقني كلامك!

وساد جو من الصمت والدهشة. وسمعت «ثيو» يضحك ضحكة صغيرة مكتومة، ثم استدارت لتواجه الغضب الجامح في عيني «فيغاس». كانت «تينا» تعرف أنها واجهتهما بوقاحة، لكنها لم تكن مستعدة للاعتذار لـ «أنيز» التي دل لون وجهها على مقدار الغضب الذي لحقها من الإهانة. وضغطت «تينا» على أسنانها وهي تراقب تحركاتها الغاضبة في اتجاه «رامون»، وكأنها تطلب منه الحماية، وضغطت على شفتيها بشدة حتى تمنع نفسها من الاندفاع في مواصلة كلماتها المتأثرة وهنا تحدث «رامون فيغاس» وقال:

– «أنيز»، إني متأكد أن الآنسة «دونيللي» لا تقصد إهانتك، وستخبرك بذلك بنفسها عندما تعد اعتذارها في وقت آخر. ولم يستمع إلى «تينا» وهي تقول:

– مستحيل.. لكن تعابير وجهه أصبحت قاسية وجادة، حتى أنها أدارت وجهها بعيدًا، وهي تشعر بالتعاطف مع «ثيو» لموقفه المشابه

لموقفها، والذي وقع له في الليلة السابقة. وهزت رأسها في حركة سخرية، وهو يساعد «أنيز» على الجلوس في مقعدها، ولكن، لقد كان هناك شعور غامض في أعماقها يؤكد لها أن «رامون» لم يقل كلمته الأخيرة بعد فيما حدث. لكن من المؤكد أنه لم يكن قط من النوع الذي يسمح لأحد بأن يتجاهل أوامره.

- 5 -

استقر المقام بالجماعة في قاعدة المعسكر التي أقاموها، في قلب «الأمازون» تمامًا، في منطقة «كازيكوير». وكانت «تينا» تشعر بمعاناتها تتزايد يومًا بعد يوم، مع تزايد الأدغال الكثيفة التي أصبحت وحدها كل شيء يحيط بهم، حتى أنها تصورت أنه لم يعد هناك شيء في العالم سوى الأدغال الخضراء، والمياه الراكدة السوداء. فالأشجار تتعالى إلى السماء وتتشابك قممها العالية لتكون ستارة سوداء تمنع أشعة الشمس من اختراقها على ضفتي النهر، في حين أن الأغصان المنخفضة الكثيفة تتمايل في تثاقل حول جذوع الشجر الضخمة، وكأنها عباءة سوداء تخفي وراءها رعبًا على وشك الانطلاق.

وكان عليهم أن يبقوا في مكانهم مدة أسبوعين، حتى يتمكن العلماء والجغرافيون من معرفة أنواع النباتات والحياة عند قاعدة النهر. وفي هذا الوقت قررت «تينا» أن تسأل «رامون فيغاس» أن يسمح لها بتكوين فريق صغير للتوغل في المنطقة، بحثًا عن طبيب الأعشاب، ولكن، كيف يمكنها أن تسأله؟ منذ الصدام الذي وقع بينها وبين «أنيز»، تركها

الجميع وحيدة، ما عدا «ثيو»، ولكن في كل مرة كانت عيناها تلتقي بعيني «رامون»، كانت تقرأ فيهما أمرًا بأن تعتذر إلى «أنيز» التي بقيت متعالية في برود. وكانت تعلم أنها يجب أن تحقق طلبه إذا أرادت أن يحقق لها طلبها. لكن الأمر كان يزداد صعوبة كلما فكرت فيه: كيف يمكن لها أن تذل كرامتها أمام امرأة متخصصة في الظهور أمام الرجال في أجمل صورة ممكنة كي تجذبهم. ولكن، كل شيء ممكن في سبيل العلم.

وسنحت لها الفرصة عندما توقف الزورق، فقد كان كل أعضاء البعثة مشغولين في تفريغه من أمتعتهم ومعداتهم حتى يمكن لـ«جوزيف روجرز» وبحارته أن يفحصوه ويتأكدوا سلامته بعد الرحلة الشاقة.. ونظرت حولها فرأت «أنيز» تقف وقفة مرسومة تراقب بكسل الحركة التي تدور حولها، ولاحظت «تينا» أنها تمسك في يدها مبسمًا طويلا أنيقًا فيه سيجارة لم تشتعل بعد، وهي تنظر إلى الرجال المشغولين، طلبًا لمن يشعلها لها. ورسمت «تينا» ابتسامة على شفتيها، في غمرة انشغال الجميع بتنظيم أمورهم. لم يكن لدى أي واحد منهم لحظة يلقي فيها نظرة إلى «أنيز» التي استدارت يائسة وضجرة لتبحث في جيبيها عن علبة كبريت! وقاومت «تينا» كبرياءها ومدت يدها بولاعتها إليها وقالت لها ببرود:

- هل يمكن أن أساعدك! وحملقت «أنيز» إليها وتراجعت «تينا» إلى الوراء وهي ترى اللهب البرتقالي يعكس هذه الكراهية العميقة في نظرات «أنيز».. وتنفست «تينا» في فزع في حين ضحكت «أنيز» ضحكة صفراء وهي تطلق سحابة من الدخان بينهما، وكانت كل ذرة في جسمها

تدعوها إلى الفرار بعيدًا عن المرأة التي تركت مظاهر الكراهية واضحة عليها، وقاومت نفسها بضراوة وهي تتذكر الهدف الذي تسعى إليه. وقالت:

- يا آنسة. رفعت «أنيز» حاجبيها في دهشة وأجابت:

- نعم؟ ارتعش صوت «تينا» وهي تقول:

- إنني مدينة لك بالاعتذار. خرجت عن حدودي تمامًا معك، وأود أن تعرفي أنني آسفة جدًا. فرفعت «أنيز» كتفيها بازدراء وعدم اهتمام، وعيناها تبحثان بين الرجال لترى ما إذا كان واحد منهم قد انتهى من عمله وأصبح مستعدًا لتسليتها، لكن الرجال كانوا في قمة نشاطهم، عندئذ استدارت إلى «تينا» وقالت:

- آنسة «دونيللي»، هل تتصورين أنني أهتم لحظة واحدة بما تقولين؟ وحدجتها بنظرة احتقار. قبل أن تواصل كلامها:

- إنني لا أهتم إطلاقًا بتفاهات امرأة إنجليزية معقدة، خائفة من الحياة ومن الرجال. امرأة باردة تضع نفسها في قوقعة ثلجية. وترتعد كلما وجهت إليها كلمة إعجاب عادية. وأطلقت ضحكة عالية تنطق بالاحتقار، أشد في قسوتها من الكلمات المهينة التي وجهتها إلى «تينا» التي جمعت أصابع يديها في قبضة عندما شعرت بهما ترتعدان. «باردة»! «معقدة»! آه لو تعرف «أنيز» مقدار الحرارة التي في قلبها، إذن لغيرت رأيها في الحال.. وضغطت «تينا» على أسنانها الصغيرة وهي تستعد للمعركة. إنها لم تشعر طوال حياتها بالظلم والاضطهاد كما شعرت بهما منذ بداية هذه الرحلة. لكنها في الطريق اكتشفت وجوهًا أخرى خفية في طبيعتها لم تكن تعرفها، لقد كانت تخفي تحت

ستار الوقار الذي حملته سنوات طويلة، مشاعر فياضة ناعمة، أنعم من شعرها، وفي اللحظة التي فتحت فمها لتنطق بالرد على «أنيز»، ارتفع صوت «فيغاس» حولهما وبصوت رقيق، وبطريقة غير عادية، قال مخاطبًا الاثنتين:

– إنني سعيد؛ لأني أراكما معًا، وقد أصبحتما صديقتين، وتغلبتما على الخلافات بينكما. فاستدارت الاثنتان معًا. كانت عيناه تتجولان بينهما، بنظرة استفسار رقيقة أرسلها إلى «أنيز»، في حين ما زالت نظراته إلى «تينا» تحمل الشك واللوم. ووجهها مازال مشدودًا بالغضب، مما دفعها إلى الضغط على أعصابها بسرعة لتزيل كل شك في ذهنه. في هذه اللحظة، مدفوعة بحاسة الأنثى، شعرت بأنها يجب أن تنتصر على «أنيز» في هذه اللعبة إذا أرادت ألا تبقى في قائمة «رامون» السوداء إلى الأبد. فاستدارت لتبتسم لغريمتها بابتهاج، متجاهلة دهشتها التي قطعت منها الأنفاس واتسعت ابتسامتها وهي تقول:

– أعتقد أن الآنسة وأنا قادرتان على تخطي بعض المشكلات الصغيرة بغير تشجيع منك يا «فيغاس». طبعًا نحن صديقتان. وأنا متأكدة أنه عند نهاية الرحلة سنجد بيننا أشياء كثيرة مشتركة، أليس كذلك يا «أنيز»؟ كانت سعيدة وهي تراقب المعركة الدائرة في نفس «أنيز»، قبل أن تتخذ قرارها، فقد أدركت «أنيز» أنها سوف تبدو مخطئة في نظر «رامون» إذا رفضت هذه الصداقة، ومن ثم يجب أن تتغلب على هذا الموقف، حتى لو كانت ترى هذه النظرات الضاحكة الخبيثة في عيني «تينا» التي تخفيها تحت ستار من الابتسامات الكاذبة. وبمجهود خارق نجحت في أن تبتسم، ردًا على ابتسامات «تينا»، وأن تطلق

ضحكة صغيرة مغرية، استطاعت أن تخدع بها «رامون»:

– «رامون».. طبعًا نحن صديقتان. كيف يمكن أن تتصور شيئًا آخر؟

– في هذه الحالة، هيا لترى كل منكما المكان المخصص لها، قبل أن نجلس للعشاء. طوال فترة العشاء، تغيرت أحوال «تينا» تمامًا. للمرة الأولى تسير الأمور كما تشتهي. والانتصار الرائع الذي شعرت بأنها قد حققته في مواجهة «أنيز» أعطاها ثقة قوية للحديث مع الرجال على الرغم من أنها لم تجرؤ من قبل. وحين جلسوا حول نيران المعسكر، في دائرة واسعة، يأكلون الكاري الذي أعده لهم «فيلكس كريللي» الذي كان مسؤولا عن المطبخ في ذلك المساء، استطاعت أن تشق طريقها وسط الأحاديث الدائرة، بسهولة أدهشت زملاءها الذين كانوا جميعًا سعداء بها، ما عدا «ثيو» الذي كان متضايقًا من هذا الانطلاق الجديد منها، والذي يمثل انتقاصًا من اهتمامها الخاص به. إنه لا يستطيع أن يشكو من تجاهلها له، فقد أعطته من اهتمامها قدر ما أعطت الباقين، ولكنه كان شعور من يملك شيئًا، وفجأة، وجد كثيرين غيره يشاركونه فيه. وقام «ثيو»، باصطحاب «تينا» إلى سريرها المعلق، ولكن قبل أن تستدير لتتركه، جذبها من كتفها، واضطرها إلى مواجهته. قاومت عنفه بحدة وهي تهتف به:

– «ثيو» إنك تسبب لي الألم. واجتاحتها موجة من الخوف، وهي ترى عينيه تلمعان في الظلام. حاولت التملص لكنه انقض عليها وحاول أن يطوقها بذراعيه، فانتفضت مذعورة وقالت:

– إياك أن تلمسني ثانية، هل تسمعني؟ إذا حاولت أن تقترب خطوة واحدة فسأصرخ طالبة النجدة!

– أعتقد أنك تفضلين جذب انتباه هذا الرجل البرازيلي. هل تعتقدين أنني لم ألاحظ الطريقة التي تنظرين بها إليه في اللحظات التي تصورت فيها أن أحدًا لا يراقبك، والطريقة التي تلمع بها عيناك عندما تلتقيان بنظراته؟

– لا تكن غبيًا، إنك تترك لخيالك أن.. وقاطعها بعنف:

– إذن لماذا كنت تهتمين بكل كلماته وحركاته؟ وفكرت بسرعة في أن تجد عذرًا وتمتمت:

– ذكرت لي بنفسك أن «رامون» قد عقد خطبته على «أنيز»، فلماذا أضيع وقتي مع رجل هو خطيب امرأة أخرى؟ وضاقت عيناه. وترددت ابتسامة على شفتيه ولدهشتها الشديدة، إذا هو يتنهد من أعماقه، ثم راح يضحك بسعادة واضحة:

– ماذا تكونين أيتها الشيطانة الصغيرة الماكرة! تفعلين ذلك لتضايقي «أنيز»، إنك تكرهينها وتحاولين الحصول على صديقها لتلقينها درسًا. وشعرت بصدمة: إن «ثيو» وحده في هذا العالم يمكن أن يتصور هذا التصور، ولكن إذا كان ذلك سيبعده عن متابعة ما يحدث بينها وبين «فيغاس»، فلتدعه يعتقد بصحته وابتلعت ريقها بصعوبة، وأحنت رأسها بالموافقة. وشعرت براحة يصاحبها الإحساس بالعار وهو يطلق ضحكتين، معبرًا عن فهمه، ثم استدار عائدًا إلى سريره.

وعندما اختفى في الظلام، شعرت «تينا» بالتوتر والأرق فقررت أن تتجول حول المعسكر، إلى أن تسترد هدوءها، ونزلت إلى شاطئ النهر، واستندت إلى شجرة. كان النهر رائقًا وناعمًا تحت غلالة من الظلام، تخترقها أشعة القمر المتلألئة، والموج الرقيق يهمس للشاطئين وجثت

على ركبتيها لتدلي أصابعها في الماء بحثًا عن بعض الترويح في مياهه المنعشة الباردة. وفجأة سمعت صوتًا يدوي في أذنيها بغضب:

– هل أنت مجنونة هل أنت معتوهة تمامًا! ولدهشتها الشديدة، شعرت به يهزها هزة جعلت أسنانها تصطك، ورأسها يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف في مقاومة ضعيفة، وكأنها دمية من القماش. كان الهجوم سريعًا، وعندما استطاع أخيرًا أن يسيطر على أعصابه لدرجة تسمح له بالكلام، وجه «رامون فيغاس» إليها الحديث بصوت حاول بكل طاقته أن يسيطر عليه:

– حسنًا دافعي، إذا استطعت، عن جريمتك الخرقاء. وأفاقت فجأة، وتراجعت إلى الخلف، وحملقت إلى وجهه غير واعية بما حدث. كانت نظراتها الخائفة تحدق إلى وجهه الغاضب الوحشي، وكأنها طفل عوقب بغير سبب. وارتعدت يداها وهي ترفعهما لتعيد تثبيت المشابك في شعرها وقالت:

– أنا لا أفهم شيئًا، ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟

– تتساءلين عن الخطإ الذي ارتكبته؟ هل تقصدين أنك نسيت كل شيء عن «البيراناس»؟

– قرأت طبعًا وسمعت أيضًا عن هذه الأسماك الصغيرة الرهيبة، آكلة لحوم البشر، التي تستطيع أن تحول الرجل إلى هيكل في لحظات. وجعلها رد الفعل ترفع يديها إلى أعلى أمام عينيها، وكأنها تبحث عن أصابعها لترى ما إذا كانت ما تزال في مكانها. وقال بضيق وغضب:

– كنت محظوظة يا آنسة «دونيللي» فمن المعروف أن الرجل إذا وضع يده في هذه المياه، فإنه عادة يخرجها بلا أصابعه! ما الذي جعلك بحق

السماء تقدمين على هذا التصرف؟ لو كان في يدك جرح صغير جدًا، لاندفعت إليك أسراب الأسماك المتوحشة -وقد جذبتها رائحة الدماء- لتخلص لحمك من عظامك! وارتعدت، ومادت الأرض تحت قدميها، وهي تتصور لو أن هذا حدث بالفعل وكان من المستحيل أن تشرح له أنها كانت تحاول نسيان مخاوفها وسط هذا الجمال الذي يحيط بها، ولم يكن ممكنًا أن تقول له إن الأسماك لا تهاجم شخصًا ليس فيه أي جرح بدليل هؤلاء الزنوج الذين يسبحون وسطها دون أن يحدث لهم أي ضرر. وجذبها خارج الظلال إلى ضوء القمر الساطع وقال:

- كما ذكرت من قبل يا آنسة «دونيللي»، أنك إما ذكية وإما غبية، ولكن في كلا الحالتين لا يمكن أن تكوني قادرة على تحمل مسؤولية بقائك وحدك في الأدغال ولو لحظة واحدة. وأفقدتها الصدمة الوعي، لم تستطع أن تفعل شيئًا إلا أن تتراجع وهي تحدق إليه بعينين ملأهما الخوف. وكأن شعرها الطويل الكثيف أخجله أن يظهر جماله في وجه هذا الاحتقار البالغ، فسقط آخر مشبك فيه لينسدل على كتفيها. وشعرت بقبضته تتراخى على كتفيها. فرفعت رأسها بتوسل ليغفر لها، وشعرت بأنه نجح فقط في أن يتماسك، وأنه يقاوم صراعًا في نفسه لإدراكه أنه أمام أنثى. وأحست مرة أخرى أنه الوحش الكاسر الذي يحوم في قفصه بحثًا عن حريته، وهربت من الشيطان الذي يقبع في عينيه العميقتين، لكنها لم تنجح في الهرب من قبضته، فقد جذبها إليه بشدة، لتلتصق بصدره القوي. وأمسك خصلة من شعرها، ولفها حول ذراعه الأسمر، لتكون تناقضًا بين يده بلونها القاتم وشعرها اللامع الرائع وكأنه سوار من الذهب الطبيعي حول يده، وحمل إليها صوته نشوة كتلك التي

شعرت بها عندما ضمها. وقال برقة:

- كنت أشك في أن الجليد يمكن أن يستمر في هذا المناخ الحار. وأفاقت من غيبوبتها على صوت ضحكة جافة، خالية تمامًا من المرح، يرن صداها في المنطقة الخالية. وملأها شعور بالاشمئزاز عندما استدارت لتجد «ثيو» واقفًا وسط الفضاء يحدق إليهما. كان فمه يطلق ضحكة خبيثة، تتناقض بضراوة مع الغيرة الوحشية التي تنطلق من نظراته. وانتبهت، فكان من الواضح أن «ثيو» يستعد للهجوم، وشعرت بالرعب وهي تتوقع السلاح الذي يستعمله لينتقم من «رامون».

- رائع يا «تينا»، لقد نجحت في تنفيذ كل ما خططت له. لقد كانت فكرة جريئة أن تعاقبي «أنيز» باختطاف صديقها المقرب. كان قلبها يدق كالطبل في الصمت السائد. كانت تريد أن تصرخ مستنكرة، ولكن ذلك لن يجدي في وجود «ثيو»، ربما يمكنها أن تجعله يفهم في وقت لاحق عندما يكونان وحدهما. ولكن هل ستجد هذه الفرصة مرة أخرى؟ قبض «رامون» على كتفيها بقبضتيه، وأجبرها على مواجهته، وسأل:

- هل ما قاله صحيح؟ وترددت وهي تحاول أن تشرح له:

- لا. ليس تمامًا. على الأقل.. لكنه قاطعها بقوة:

- أجيبي، هل ناقشت هذه الخطة مع «برانستون» نعم أم لا؟ واستجمعت كل ما تملكه من قوة لتتمكن من الإجابة وهمست:

- نعم، ولكن... واستحال وجهه الأسمر الجميل، إلى خطوط شرسة من الاحتقار، احتقار حادّ، لا يمكن أن يصدر إلا عن رجل يملك قدرًا عظيمًا من الكبرياء، ورثه عن أجيال متعاقبة من الأسلاف المتعجرفين. وبعد ثوان دار على عقبيه بهدوء واختفى في الظلام!

www.rewity.com

- 6 -

خلال الأيام القليلة التالية، أغرقت «تينا» نفسها في العمل، حيث كانت تجوب الأدغال القريبة بحثًا عن النباتات الغريبة والمفيدة تصنفها وتكتب ملاحظاتها، في شأنها وتجففها، ولكن الاستغراق في هذا العمل وملاحظة ما حولها، لم يستطع قط أن يمحو الحقيقة التي تحيط بها. وكانت اكتشافاتها في هذا الصدد خليقة بأن تكون مثيرة للغاية بالنسبة إليها، سواء فيما يتعلق بالنباتات التي لم ترها من قبل إلا كأمثلة بلا حياة، مرصوصة في المتاحف، أم فيما يتعلق بهذه الأشياء الجديدة المثيرة التي تعثر عليها في كل خطوة من خطواتها المترددة في الأدغال المجهولة. لكن حتى هذا الجمال - الذي يبهر الأنفاس - لزهور الأوركيد المتوحشة، بأغصانها ذات الأشواك الرائعة وهي تمتد وتتجمع فيما يزيد على عشرات الآلاف فوق الغصون الخضراء، لم يستطع أن يجذبها بعيدًا عما حدث لها أخيرًا.

إنها كلما استرجعت ذكرياتها، شعرت بفيض من الخجل والعار يغمرها. وساءلت نفسها آلاف المرات: «كيف أمكنني أن أفعل ذلك؟ ما الذي دفعني إلى أن ألقي بنفسي بين أحضان رجل لم يفعل أكثر من التظاهر بقليل من التجاوب معي؛ لينقذني من الخجل؟» ولم تستطع قط أن تجد عذرًا مقنعًا. كانت تستطيع أن تتظاهر بأن عنف الصدمة التي عانتها عندما جذبها بعنف لينقذها من الأسماك القاتلة المخيفة، أخمد عقلها وسلبها إدراكها، لكنها كانت أمينة إلى الدرجة التي جعلتها لا تتمكن من أن تخدع نفسها. لقد تجمع حولها خيط من سحر الليالي

الاستوائية، وشعورها بالسعادة، وقربه الشديد منها. فساعد ذلك كله على خلق المناخ الذي دفعها إلى ما حدث. وشعرت بقليل من الراحة، وبقليل من الشكر لتدخل «ثيو» في الوقت المناسب. لم يكن «رامون» مهتمًا بأن تكون مشاعرها في تلك الليلة نابعة من قلبها، وها هو يتصور الآن أنها لم تكن إلا مجرد مشاعر تظاهرت بها لتضايق «أنيز».

وبعد ثلاثة أيام من الأفكار المتضاربة، ومن العمل الشاق، وجدت نفسها ما تزال بعيدة عن تحقيق خطتها بسؤاله أن يسمح لها بالبحث عن طبيب الأعشاب، فإنها لم تكن قادرة على الاقتراب من «رامون فيغاس» أو اتخاذ قرارها في هذا الشأن. كانت نظراته الجامدة تمنعها من مجرد التفكير في الاقتراب منه. عشرات المرات حاولت أن تذهب إليه، ولكنها كانت تتردد، إلى أن تضيع منها الفرصة. واستمر الحال كذلك حتى الليلة الثالثة، وفي خلال الاجتماع الذي يعقب العشاء، استطاعت أن تجمع قدرًا كافيًا من الشجاعة لتعرض موضوعها. كان الجميع يلتقون حول نيران المعسكر يستريحون، ويتحدثون عن التقدم الذي أحرزوه خلال أعمالهم اليومية. وكان رأس «رامون» الأسمر منحنيًا على «أنيز»، عندما انطلق سؤال «تينا» بلا وعي منها:

- سيد «رامون»، هل يمكن أن تسمح لي بتكوين فريق صغير للبحث عن «جواهاريبوز»؟ وتوقفت أنفاسها مع توقف الأحاديث بين الجميع. فاستدار «رامون» ليوجه إليها نظراته، وواجهت قسوته بهدوء يخفي خلفه دقات قلبها الذي توقف عن التنفس.

- «جواهاريبوز»؟ ألا تعرفين أن هؤلاء الناس ينحدرون من قبائل متوحشة آكلة للبشر، وهم لم يتحضروا إلا منذ وقت قصير، وربما عادوا

إلى عاداتهم إذا دخل غريب أرضهم؟ إنني أريد أن أعرف سببًا مهمًّا يدعوك إلى هذا الطلب الغريب يا آنسة «دونيللي»؟ اندفعت فورًا تشرح السبب. نسيت تمامًا عصبيتها وخوفها، رفعت رأسها الذي تصاعدت إليه الدماء، وردت على نظرته القاسية بتوسل، طالبة منه أن يقدر ويدرك، وهي تشرح له رغبتها في العثور على طبيب الأعشاب واستمع هو صامتًا، حتى لم يعد لديها مزيد من الكلام. وعندما تصورت أنها لمحت شعلة من الاهتمام تومض في وجهه الذي يرتدي قناع اللامبالاة، ارتفعت روحها المعنوية. ولكن قبل أن تتزايد آمالها، ارتفعت ضحكة ساخرة من «أنيز»، وهي تعلق في مرح:

– يا لها من رغبة غبية، إنني لم أسمع قط عن شيء أكثر غرابة من ذلك. ثم سخرت من «تينا» قائلة:

– يبدو أنك ساذجة تمامًا. هل تعتقدين أن طبيبًا بدائيًا قذرًا يعرف عن معالجة الأمراض أكثر مما نعرف نحن الأطباء والجراحين؟ وردت «تينا» بهدوء:

– هل اخترع الأطباء أدويتهم يا آنسة؟ لقد أنتجت النباتات الدواء أولا، وما زالوا يصنعون الأدوية المشابهة مثل الكينين والبنسلين. إنني أعترف بأن المعامل الهائلة للكيميائيين في جميع أنحاء العالم تتفوق على الإنتاج النباتي، لكنهم يعتمدون دائمًا على القليل من النباتات التي يدرسونها لولا مثل هذا الطبيب الذي يعترض طريقهم أحيانًا بالمصادفة، أو أولئك العلماء وجامعي النبات، الذين يتّبعون أي خيط ولو كان ضعيفًا من أجل الوصول إلى مثل هذا النبات والتحقق من فوائده.

– رائع يا «تينا» رائع. وكشف صوت «ثيو» عن ضحكة خبيثة، وهو

يتدخل في الحديث:

– عرضت موضوعك بطريقة واضحة في الحقيقة، وأؤكد لك أنه بعد ذلك لن يسع أي رجل أن يرفض مساعدتك في بحثك. إلا إذا.. وابتسم بتحدٍّ لـ «رامون»، وواصل كلامه:

– إلا إذا كان خائفًا من التعامل مع المواطنين وأسلحتهم السامة. في هذه الحالة سأكون سعيدًا باصطحابك إلى القرية بنفسي. قاطعه «رامون فيغاس» قائلا:

– «برانستون»، إنك لن تفعل شيئًا من ذلك، فأنا المسؤول عن اتخاذ القرارات هنا. وبما أنني المسؤول عن كل حركة من حركاتكم، فإنني لن أسمح لأحد بارتكاب الحماقات. وزمجر «ثيو» محتجًّا، لا شيء يمكن أن يوقفه الآن، لقد استطاع أن يقلب المائدة على الرجل الذي استطاع أن يقلل من شأنه للمرة الأولى في حياته. كان طعم الانتقام حلوًا، وذكرى انتصاره تعيش مرحة في أعماقه وتعطيه قدرًا من الثقة والأمان، في وجود الرجل المهزوم. لكن نظرات «رامون» الباردة انتقلت من وجه «ثيو» المنتصر لتتسمر على وجه «تينا» المنحني الذي رفعته بسرعة عندما سمعته يخاطبها:

– يا آنسة، إنني أحترم دوافعك إلى إبداء هذه الرغبة، كما أني أقدّر احترامك لما فعله علماء النبات. لكن طلبك مرفوض تمامًا حتى ولو كان الرجال يرغبون في الذهاب معك، إنني لن أسمح لهم بذلك فالمخاطر عظيمة جدًّا. وارتفع همس متعاطف في صفوف الرجال وقد لاحظوا خيبة الأمل الواضحة التي ظهرت على وجه «تينا» وعبر «فيلكس كريللي» عن شعور الجميع بقوله:

– سيد «رامون»، هل هذا هو قرارك الأخير؟ من العار أن نكون بالقرب من الهدف الذي تسعى «تينا» إليه، ومع ذلك نقف عاجزين عن تحقيقه. إنني شخصيًا على استعداد للتطوع بالذهاب معها إلى القرية، إذا رسمت لنا الطريق. وارتفعت الأصوات مؤيدة، فانتعشت آمال «تينا». تصورت أنه لن يرفض الطلب، بعد هذه الموجة من مشاعر البطولة. لكن آمالها لم تلبث أن تبددت وهي تستمع إليه يتحدث!

– إن الـ «جواهاريبوز» لن يصيبونا بالضرر إذا بقينا جميعًا معًا، ولكن إذا سمحنا لمجموعة منا بالانقسام والرحيل فسوف تكون المخاطر رهيبة جدًا. ورد «فيلكس»:

– ولكن يا سيد، إننا لم نر واحدًا من هؤلاء الوطنيين منذ وصولنا إلى هنا، ما الذي يجعلك متأكدًا أننا إذا قابلناهم فإنهم سيعاملوننا بعداء؟ زوى «رامون» ما بين حاجبيه في تقطيبة غاضبة، وتحولت لهجته إلى الشدة والعنف وهو يجيب:

– نحن لا نتعامل مع قبيلة من الأطفال الأبرياء. إن الـ «جواهاريبوز» متوحشون من آكلة البشر، وإن اتصالهم بأول رجل أبيض لا يزيد على شهور قليلة مضت. أما بالنسبة إلى عدم رؤيتك لواحد منهم حتى الآن.. وحمل صوته رنة التحذير، وهو يستطرد:

– قد يسعدك أن تعرف أن عيونهم تتبعنا في كل مكان نذهب إليه منذ وصولنا إلى هنا، منذ اللحظة التي وضعنا أرجلنا فيها على أرضهم! ولم يسمح لهم بأكثر من التحديق إلينا، ثم واصل:

– لو كنت قوي الملاحظة بعض الشيء، للاحظت أضواء معسكرهم في الليل. كما أن بعض الحليّ التي علقتها على الأغصان حول المعسكر

لا تُمسُّ حتى الآن. ولكن في كل صباح أجد الدليل الذي يثبت أنهم توقفوا على بعد أمتار قليلة منها. وتحطمت آمال «تينا» عندما نظرت حولها لتجد الرجال غير قادرين على مواجهة نظراتها المتوسلة. وحركت نظراتها بسرعة بعيدًا عن هذه العيون الزرقاء الحديدية التي بدا فيها أنها تغتبط بهزيمتها. وبحركة آلية رفعت كتفيها في استسلام، ولكن قبل أن تترك دائرة الضوء، سمعت أمرًا صادرًا إليها يقول:

– آنسة «دونيللي»، أريد التحدث إليك في الصباح. فأرجو أن تأتي إليّ بعد الفطور مباشرة. أشارت برأسها بعلامة الموافقة دون أن تنظر إلى الجهة التي صدر منها صوته، ثم سارت وقد غامت المناظر في عينيها، فلم تعد ترى شيئًا حتى وصلت إلى سريرها. وتعذبت كثيرًا قبل أن تستسلم إلى النوم. وبعد الفطور مباشرة، أسرعت تقف بوجهها المتعب، وفمها المرهق. وعينيها المتورمتين من السهر أمام «رامون فيغاس». كان الرجال جميعًا قد تركوا المعسكر إلى أعمالهم، حتى «أنيز» اصطحبت الأخوين «بريكلنغ» لتقف أمامهما في عدة أوضاع للتصوير بين المناظر البدائية الباهرة، لتوضح التناقض بين الطبيعة والصنعة، وهكذا بقيا وحدهما، وكانت كلمته الأولى لها:

– ماذا حدث لك، هل أنت مريضة؟ وفوجئت بالخشونة غير المتوقعة في تحيته، فهزت رأسها وأجابت:

– لا. طبعًا لا. فضغط على أصابعه بصبر فارغ. وأشار إلى صندوق مقلوب، قائلا:

– اجلسي، أريد أن أتحدث معك، وأضاف:

– إلى أية درجة ترغبين في العثور على طبيب الأعشاب، هل إلى الدرجة

www.rewity.com

التي تجعلك تنفذين كل ما يطلب منك دون سؤال، وبدرجة كافية لأن تعدي بتنفيذ كل التعليمات التي أصدرها إليك عند الضرورة؟ لا تجيبي عن السؤال الأخير دون تفكير. وأضاف بحدة، بعد أن لاحظ أنها فتحت فمها لتجيب بموافقة سريعة:

– يجب أن أتأكد أنك فهمت أهمية طلبي حتى قبل أن أفكر في أن آخذك إلى قرية الـ«جواهاريبوز». واعترتها الدهشة. وتصورت أن أذنها خدعتها، فسألته ببطء:

– تقصد أنك ستصحبني إلى القرية؟!

– أفكر في ذلك، إذا استطعت أن تعديني بأنك لن تتجولي بعيدًا عني ولو لحظة واحدة خلال الرحلة. ثم استطرد مؤكدًا:

– وأن تنفذي بدقة كل ما أقوله دون سؤال أو تردد، منذ اللحظة التي نغادر فيها هذا المعسكر حتى نعود إليه. عانيت حماقتك كثيرًا، ومحاولاتك لإقناعي بأنك جديرة بالسير وحيدة في هذه المناطق، وبما أنني سأحتاج إلى البحث عن الأثر في كل خطوة، إذا كنا نريد أن نصل سالمين إلى القرية، فيجب أن أتأكد أنك لن تصارعي غوريللا، أو تشتبكي مع فهد وراء ظهري إذا أدرته لك. اندفعت دماء الغضب تصبغ وجهها، واشتعلت عيناها بالثورة فقد أغضبتها كلماته الساخرة، وأوشكت أن ترفض العرض الذي يقدمه إليها. لكنها استردت توازنها وأدركت أنه يمنحها الفرصة لتسير في الطريق الذي بدأه والدها، وعليها ألا تترك شيئًا يعوق بينها وبين التعلق بهذه الفرصة. سألته:

– لماذا غيرت رأيك؟ بالأمس رفضت أن تسمح لأحد من الرجال بأن يرافقني في هذه المهمة، خوفًا من الأخطار الرهيبة، والآن تعرض أن

تذهب أنت معي، فهل تبددت هذه المخاطر؟

– بل ما زالت موجودة، ولكن إذا ذهبنا وحدنا فإن الخطر سيكون أقل كثيرًا مما لو ذهبنا في مجموعة. إنني أعرف أفراد هذه القبيلة، وهم أيضًا يعرفونني. ولن يحدث لك أي ضرر ما دمت معي. ثم انتصب واقفًا وقال آمرًا:

– إذا كنت ترغبين في تنفيذ كل ما عرضته عليك، فيجب أن تكوني مستعدة في خلال عشر دقائق. خذي معك كل ما ترينه ضروريًا لاحتياجاتك. لقد أعددت الأشياء الضرورية التي سنحتاج إليها في هذه الرحلة.

– عشر دقائق؟ وماذا عن الباقين؟ أية أفكار ستراودهم حين يعلمون أننا رحلنا؟

– لقد ناقشت هذه الخطة فعلا مع «فيلكس» و«جوزيف روجرز» إنني لا أريد أية مناقشات، لا من صديقك «برانستون»، ولا من «أنيز»، وكلاهما يرغب في الذهاب معنا، وقد أصدرت أوامري إلى «فيلكس» ليشرح لهما كل شيء حين يعودان. وأصبح صوته هامسًا وهو يقول:

– اطمئني يا آنسة، لن تفارقي «برانستون» لمدة طويلة. أتوقع أن نعود في مساء غد على أبعد تقدير. وأسرعت «تينا» –والانفعال يطغى عليها– تملأ جيوبها بما تصورت أنه ضروري لها. ولم تمض سوى خمس دقائق حتى كانت تضرب الأرض بقدمها أمامه في وقفة الاستعداد، منتظرة أوامره، وبدا عليه الرضا، واستدار مشيرًا إلى قارب صغير في النهر، قائلا:

– هذا القارب سيكون مفيدًا لنا في رحلتنا طالما نسير في النهر، فهو أسرع

من السير على الأقدام، هيا اصعدي إليه، ولكن لا تضعي أصابعك في الماء. واستدارت إليه بوجه شاحب وهمست بتردد:

– يا سيد «رامون» لا أستطيع أن أعبر لك عن أهمية هذه الفرصة بالنسبة إليَّ. أشكرك من كل قلبي؛ لأنك حققت هذه الأمنية العزيزة عليَّ. وعلى الرغم من أنها لاحظت أن وجهه المتصلب أخذ يلين بعض الشيء، إلا أن عينيه ضاقتا وهو يرد:

– لا تخدعي نفسك. إنني لا أقوم بهذه الرحلة من أجلك. دوافعي شخصية بحتة. فأنا بدوري أريد أن أقدم خدمة للعلم.

* * * * *

حاولت «تينا» بكل قواها أن تخفي عنه ألمها العميق الذي شعرت به طوال رحلتهما، في النهر قاصدين قرية الـ«جواهاريبوز». وتمنت لو أنها لم تبدأ الرحلة على الإطلاق. كان الجو المحيط بها لا يطاق. وهي مع شريك صامت، يتعمد تجاهلها. جاءت معه وفي يدها غصن زيتون تتمنى أن تقدمه إليه، لكنه تحطم عند هذه الفجوة العميقة التي أصبحت تفصل بينهما. وكان بتجاهله وجودها ينسف أية جسور يمكن أن تعبرها إليه، ونظرة واحدة منها إلى وجهه المتجهم أقنعتها بأن أية محاولة منها لتفسير ما حدث لن تقابل إلا بالرفض أو عدم التصديق.

وشد انتباهها انحراف القارب في اتجاه إحدى القنوات المائية العديدة التي تتفرع من النهر. ولم يحاول «رامون» تقديم أي تفسير لها. وأيقنت أنهما يتجهان إلى قلب المنطقة التي لم تذكرها خريطة من قبل والتي

تسكنها قبيلة طبيب الأعشاب. واستمر القارب يسير في المجرى المائي طوال ساعات عديدة وبدأ التوتر يصيب «تينا» بالخوف. ولم يكن هناك ما يخفف توترها، فلم يبد «رامون» أي استعداد أو رغبة في الحديث معها، في حين كان هو يسير بثبات إلى أعماق الأعماق واستغرقت في أفكارها: تصورت أن وراء كل كتلة من الأشجار الكثيفة يختفي وحش كاسر، وأن على كل فرع من فروع الأشجار مجموعة من الحشرات القاتلة تنتظر لتنقض عليها. وأن كل غصن رقيق ليس إلا أنبوبة رقيقة ستنطلق منها السهام السامة، ومع أنها لم تر في الحقيقة غير هذه الفراشات الرقيقة المسالمة والطيور ذات الألوان الرائعة، إلا أنها كانت تشعر بشعور غريب جعلها متأكدة أن هناك عيونًا متلصصة تراقبهما من خلال الأغصان المتشابكة على طول الطريق.

وفجأة قاد «رامون» القارب الصغير إلى شاطئ النهر، ومد يده إليها ليساعدها على الانتقال إلى الشاطئ وارتعشت يدها وهي تلامس يده، وقالت:

– ما أجمل هذه الأدغال! انظر... وأشارت إلى مجموعة رائعة من زهور الأوركيد بألوانها التي في لون اللهب، وقد ظهر جمالها واضحًا إزاء هذه الخلفية من الأغصان القاتمة الخضرة.

– أليست في غاية الروعة؟! وتابعت بأصابعها طائرًا متعدد الألوان يحلق في الفضاء، مستطردة:

– وهذا لكم يبدو جميلا إلى درجة لا تصدق! وأطلقت زفرة ارتياح، وهي ترى ظل ابتسامة يتلاعب على شفتيه. لقد نجحت في شد انتباهه. ولكن عينيه كانتا شديدتي الخطر، يجب أن تأخذ منهما الحذر. وعندما

استطاع أن يثبت القارب في أرض ثابتة، استدار إليها قائلا:

– يا آنسة، اتبعيني كالظل، سيري فوق آثار خطواتي ومهما حدث لا تحاولي النظر وراءك، هل تفهمين؟ ابتلعت خوفها، وأومأت برأسها مؤكدة موافقتها دون أن تنطق بكلمة، في حين استدار هو إلى طريقه، وبدأ يخترق الأدغال. وأدارت «تينا» حولها نظرة ودعت بها هذا الجمال الخيالي، وأسرعت خلفه بأسرع ما أمكنها، وهي متأكدة أنه على استعداد لأن يتركها وحيدة لينقذ نفسه إن هي خالفت أوامره. وفي لحظة كانت تحتمي بظهره العريض سائرة وراءه. نظرت خلفها وتعجبت: «إلى متى يمكنها الاستمرار؟!» بالتأكيد كان الشيء الذي يدفعها إلى مواصلة الرحلة هو اقتناعها بأن «رامون فيغاس» كان يدفعها إلى أقصى التعب ليراها وهي تستسلم، لكنها خيبت أمله فضغطت على أسنانها، وواصلت معركتها بعد أن عرفت أنه لن يحاول أن يسمح لنفسه بالتفكير في ضعف قدراتها لكونها امرأة. العناد وحده هو الذي دفعها إلى السير في هذا العالم المملوء بالأشجار والأدغال التي لا تنتهي، وهكذا عبرت البرك والمستنقعات، وتسلقت التلال، ومرت فوق القنوات... بل إنها واجهت ما هو أقسى: هذا البعوض الجائع الذي دفعته شراهته إليها وحدها، وقد سارت على أرض ناعمة أحيانًا، وشائكة أحيانًا أخرى، بل مليئة بالأشواك إلى الدرجة التي جعلت «رامون» يُضطر إلى أن يمهد لنفسه طريقًا بعصاه. وكانت الأغصان الكثيفة تضرب وجهها، وكم لعنت هذه الخفافيش الطائرة التي تنطلق فجأة صارخة وهي تحوم وسط الغابات كالأرواح الهائمة. وكانت على وشك السقوط والانهيار، عندما التفت وراءه فجأة فتوقف وهو ينظر إلى وجهها الغارق في العرق، وقال ساخرًا

وبلهجة مرحة كأنه يتمتع بعذابها:

– يا آنسة، هل أنت على استعداد لتناول الطعام الآن، أم تستطيعين السير إلى مسافة أبعد؟

– أترك لك اتخاذ القرار، إنني أرغب في الاستمرار إذا كانت هذه هي رغبتك. ولمعت في عينيه نظرة إعجاب أخفاها بسرعة، وقال:

– سنستريح قليلا، ثم نتناول الطعام. وشعرت براحة لامتناهية، وكأنه أراد أن يعوضها عن قسوته في معاملتها فأضاف ببساطة:

– نحن على بعد ساعة واحدة من القرية. انتهينا من أصعب مرحلة من الرحلة. كانت الوجبة مؤلفة من البسكويت والسردين والبلح الجاف، قدمه من حقيبته، فتناولته بشهية وأخذت تأكل بسرعة، وهي لا تشعر بأنه يراقب كل حركة من أصابعها الصغيرة، وطريقتها التي تشبه طريقة الأطفال. وعندما انتهت تمددت على الأرض، وأطلقت زفرة عميقة، فارتفع حاجباه من الدهشة، وفجأة ودون أن تشعر، فتحت عينًا واحدة كسلة لتبحث عنه، وكانت صورته هي آخر شيء تراه قبل أن تستسلم إلى النوم. لكنها استيقظت فجأة عندما شعرت بقطرة مياه قوية تسقط على وجهها، وطار النوم من عينيها عندما شق شعاع البرق هذه السحب الكثيفة وهز الرعد الأرض تحتها، وفي رعب بحثت حولها عن «رامون» فإذا هو يعيد ربط الحقيبة. استدار إليها عندما شعر بحركتها، وقال لها مطمئنًا:

– لا تخافي، ستكون العاصفة شديدة ولكنها ستنتهي بسرعة، هيا.. أطاعته، وتبعته في الحال، ولكن بعد فترة وجدت نفسها عمياء تمامًا، فقد فتحت السماء أبوابها، وسقطت عليها كتلة من المياه منعت الرؤية

وحاولت أن تفتح عينيها، ووضعت يديها عليهما محاولة أن تزيح كتل المياه التي تمنع عنها الرؤية. وشعرت بالجنون وهي تفكر في أن «رامون» يسير دون أن يلقي نظرة إليها تاركًا إياها وحيدة ولم تستطع أن تمنع صرخة هائلة من الانطلاق ولم تر شيئًا. ولكنها أحست بشيء غريب يلتف على ذراعها: هل هو ثعبان؟! وانقطعت صرختها الثانية عندما سمعت صوت «رامون» يعلو على صوت الهدير الذي يصدره المطر:

– ماذا حدث هل أصبت؟ ورن السؤال كالصرخة في أذنها، فأعاد إليها الوعي. وأدركت أن يده هي التي تلتف على ذراعها وليست أفعى سامة من ثعابين الغابات فأجابته:

– لقد تعثرت، وأصيب كاحلي. وتراجعت إلى الوراء عندما لاحظت أنه ينحني ليفحص قدمها:

– كان الألم وقتيًا، أستطيع أن أسير الآن. ونظر إلى وجهها القلق، وكان المطر ينحدر من رأسه إلى وجهه، فاستدارت بسرعة لتبتعد عن مواجهته بقلب كسير، وتساءلت: هل خانتها أعصابها وفضحت سرها؟ أما هو فاكتفى بأن قال في حزم:

– حسنًا، هيا بنا! وكما بدأ المطر بسرعة، انقطع فجأة. ولاحظت «تينا» للمرة الأولى في حياتها كيف تكون الأدغال بعد المطر. الخضرة الناضجة الرائعة تكسو كل ما حولها، وكادت تصرخ وهي تلاحظ عودة المزروعات إلى الحياة بعد أن كانت تبدو ميتة منذ لحظات، ولكن كان عليها أن تتناسى هذا الشعور وتسير صامتة وراء «رامون». ومع انقطاع المطر خفت الحرارة التي كانت تجتاح الغابة، وحل محلها نسيم بارد رطب، وكأنه سحر مس روحها وأعاد إليها الحيوية.

كان «رامون» يركز اهتمامه في الطريق الذي يسلكانه. ولاحظت «تينا» أنه يسير بحرص شديد في الأدغال، يفحص بسرعة كل شجرة يمران بها، ويتوقف بين لحظة وأخرى ليختبر الأرض قبل أن يقرر أي طريق يسلكان فيه، وانشغل تمامًا في اختبار كل شيء حوله بدقة، وعرفت «تينا» أنه يجب عليها ألا تقطع عليه تركيزه. وبعد نصف ساعة من الصمت المركز، توقف وأخذ نفسًا عميقًا من الهواء معبرًا عن الرضا ونظرت «تينا» إلى جوارها لتعرف السبب. وشعرت بالقلق عندما رأت ممرًا مطروقًا ممتدًا إلى الأمام وسط الأرض. لقد أوشكا على الوصول.

وحملقت إليه بشدة، عندما لاحظت أنه يرسل رسالة بلغة ما، في اتجاه مجموعة من الأحراش المتشابكة المحيطة بهما. ثم ارتعشت خوفًا عندما ظهر أربعة من الرجال، أكثر وحشية من أي أشخاص رأتهم في حياتها، وأطلقت صرخة خافتة وأسرعت تحتمي بـ «رامون»، الذي همس:

– لا شيء يدعو إلى القلق كانوا يستطيعون إيذاءنا منذ ساعات طويلة مضت لو أرادوا. احتفظي بهدوئك، وإياك أن تشعريهم بأنك تخافين منهم. ساعات مضت، ماذا يقصد؟ هل كانوا يتعقبونهما منذ اللحظة التي غادرا فيها القارب. وربما قبل ذلك؟ كانت حاستها صادقة عندما شعرت بأن هناك عيونًا تتلصص عليهما، وارتعشت من الخوف وهم يقتربون ولاحظت أن كل شيء غريب فيهم: شعرهم المجعد الكثيف، مظهرهم القوي، أسنانهم القوية التي تبرز من بين شفاههم وترسم على وجوههم شكل الانتصار الخبيث. وكان مما أرسل الرعب إلى جسدها المرتعش طريقتهم في المشي التي تشبه القفز وهم يقتربون، ومظهرهم البدائي الذي تؤكده هذه الحليّ التي يرتدونها – والمصنوعة من عظام

الموتى – حول أجسادهم العارية والتي تصنع أصواتًا عندما يصطدم بعضها بالبعض الآخر صدى يزيد «تينا» شعورًا بالفزع، وأخيرًا هذه الأصوات التي يصدرونها والتي يتفاهمون بها، والتي ليس لها أي معنى بالنسبة إليها، لكن هل كانت هذه اللغة غريبة حقًا؟ انتبهت عندما سمعت شيئًا مألوفًا صادرًا عنهم، فنظرت إلى «رامون»، ولدهشتها الشديدة رأته يبتسم، إذن فكل شيء على ما يرام. أما الكلمات المألوفة التي سمعتهم ينطقون بها، فلم تكن سوى ترديد لكلمة «كارامورو». لقد كان المتوحشون يحيون «رامون» بلقبه.

واستندت بجسدها المرتعش إلى شجرة، وراقبت هذا الاستقبال الحار. كان «رامون» يربت ظهورهم، ويتبادل معهم الكلمات بلغتهم الغريبة، كان شيئًا بعيدًا تمامًا عن الحياة العادية التي تعرفها، وتعلقت بالشجرة ودموع الضحكات تملأ عينيها وتنحدر على وجنتيها. وشعرت فجأة بلطمة على وجهها أعادتها فورًا إلى وعيها. وحملقت إلى وجه «رامون» الذي كان يقف في مواجهتها، ويده مرفوعة استعدادًا لأن يلطمها مرة أخرى.. وفرت الدماء من جسمها، حتى أنها شعرت بصدمة عندما حاولت أن تتكلم فلم يصدر عنها صوت مفهوم. كانت عيناها فقط تعبران عما شعرت به نتيجة لتصرفه. ثم بعد تردد قالت:

– كيف تجرؤ على ذلك؟ ورد عليها بأن هزها هزة جعلت الخوف الذي أصابها يزول كله تمامًا ويحل محله غضب جامح، ورفعت يدها لتضرب بقبضتها هذا الصدر العريض الصخري، لكن يده امتدت لتقبض على معصمها في قوة جعلتها تتوسل إليه:

– أرجوك، أرجوك، إنك تؤلمني.

– إذن توقفي عن هذه الأفعال الصبيانية الحمقاء. ستدمرين كل ما نفعل. هؤلاء الناس سيكونون بمثابة المضيفين بالنسبة إلينا، وهم ينتظرون منك احترامًا مماثلا تمامًا للاحترام الذي تقدمينه لأبناء قومك، فأرجوك أن تذكري هذا.

– أنا لست امرأة من أهل هذا البلد، وأنت لست رجلي.

– من أجل مصلحتك ستكونين امرأتي، وسأكون رجلك، مادمنا في هذه المنطقة. ودفعها إلى الأمام، وقال:

– إذا كنت مستعدة، يجب أن نتقدم للبحث عمن أتينا من أجله.. عن طبيب الأعشاب! وكان الوطنيون الأربعة قد اختفوا، وسار «رامون» في طريقه دون تردد وتبعته «تينا». سارا مسافة بسيطة قبل أن تنفرج الأدغال فجأة عن ساحة واسعة جدًا، في واجهتها كوخان كبيران من القش، وعلى الجانبين صفوف من الأكواخ الصغيرة. وكان من الواضح أن القرية كانت في انتظارهما، فقد خرج كل من فيها من الرجال والنساء والأطفال وأسرعوا إليهما وهم يهتفون:

– «كارامورو» «كارامورو». والتصقت «تينا» بـ«رامون» وهم يتقدمون ليحيطوا بهما، لكن لفرط دهشتها توقفوا على بعد خطوات قليلة، ثم ركضوا وهم ينظرون إليها، وضغطت بيدها على ذراع «رامون» وهي تسأل:

– ماذا حدث، لماذا يحملقون إليّ هكذا؟ وكانت إجابته الوحيدة زمجرة زادت من رعبها. وظل كل شيء متوقفًا لمدة دقائق قبل أن يتقدم من خلال الجموع الراكعة أحد الشيوخ وقد بدا من مظهره وملابسه أنه رجل مهم فقال لها «رامون»:

– إنه رئيس القبيلة. وبقيت «تينا» في مكانها مرتعبة من هذه العيون المحدقة إليها، وبعد أن انتهى «رامون» من حديثه مع الرئيس، استدار عائدًا إليها وقال:

– آنسة «دونيللي»، يبدو أنهم اختاروك امرأة لي، سواء رضيت أم لا. وردًا على نظرتها التي عبرت فيها عن عدم فهمها لمعنى كلامه، قال ساخرًا:

– لون شعرك هو الذي جعلهم يتخذون هذا القرار، فقد ربطوا بيني وبينك بسبب لون الشعر. إن مفهومهم بسيط، وقد سبق أن اختاروني وأطلقوا عليَّ اسم «كارامورو» (رجل النار)؛ لأنني أول رجل رأوه يطلق النار من بندقيته.

– ولكن، ماذا بالنسبة إليَّ؟ فأمسك بخصلة من شعرها، أغرق فيها أصابعه وقال:

– أمر بسيط جدًا، أنا رجل النار. وأنت بشعرك الأصفر الناري امرأتي. إذن أنت امرأة من نار.

– أمر مضحك بالفعل.

– لا شيء مضحك في ذلك. هؤلاء الناس يعبدون النار. ومن الآن لن تخافي من الـ«جواهاريبوز» إطلاقًا يا آنسة «دونيللي»؛ لأنك مقدسة بالنسبة إليهم. كانت على وشك البكاء والهنود ينظرون إليها. كل شيء حولها كان يدفعها إلى الانهيار العصبي. وتفكيرها في أنها ستشاطرهم هذا الطعام الذي يعدونه كان يبعث في نفسها الاشمئزاز، فنظرت حولها بحثًا عن مهرب ولم تتصور أنها تستطيع أن تصارح «رامون» بما في نفسها. لقد طالبها بأن تعاملهم بأدب واحترام.

الحقيقة أن رائحة الشواء على النيران كانت شهية، ورأت «تينا» واحدة من نساء القبيلة تقف تحت الشواء وتفتح يديها لتتساقط فيها الدهون ثم تدلك بها جسمها العاري ويبدو أنها كانت عادة مألوفة عندهم، فقد هرعت النساء ليجمعن كل نقطة دهن تتساقط من الشواء، ثم يدلكن أجسامهن بطريقة فنية يحسدهن عليها أشهر الفنانين من محترفي فن التجميل. ولاحظت أن إعداد الطعام انتهى، ووقفت امرأة عجوز تقطع الثور الكبير المشوي بيديها، وتقدم قطعة إلى كل امرأة من الواقفات، وتصورت «تينا» أنهن سيقدمنها إلى عائلاتهن، لكن المرأة الأولى تقدمت بقطعة من الشواء إلى رئيس القبيلة وضيفيه. وشعرت «تينا» بالغثيان. لن تستطيع أن تذوق هذا الطعام إطلاقًا، وانحنى الرئيس على زوجته الضاحكة ليتسلم منها قطعة اللحم الضخمة، وانتهزت «تينا» الفرصة فألقت نظرة سريعة من وراء ظهره إلى «رامون»:

– أرجوك، لن أستطيع أن أتذوق الطعام.

– هل ستسمحين للغثيان بأن يفسد فرصتك في الوصول إلى طبيب الأعشاب؟ إن رفضك الطعام سوف يلحق بزعيم القبيلة إهانة شديدة. لذلك أقترح عليك أن تتغلبي على مشاعرك وتأكلي كل ما يقدم إليك. وظهر تعبير ضاحك في عينيه ثم استطرد:

– إن الطعام الذي معي لا يكاد يكفي لرحلة العودة، فإذا لم تأكلي الآن فسوف تموتين جوعًا قبل موعد العشاء. وعندما انتهى الطعام كان الظلام قد حل. وبدأ الرقص حول نيران المعسكر، مصحوبًا بموسيقى غير منسجمة تصدر من طبول جوفاء مصنوعة من جذوع الأشجار، كان العازفون يدقون عليها بعنف. ومعها غناء من شباب القرية الذين

www.rewity.com

جلسوا في شكل نصف دائرة حول نيران المعسكر مع الرئيس و«فيغاس» و«تينا»، الذين أكملوا الدائرة، وفوقهم قمر كبير ساطع يسبح في السماء، ويرسل ضوءًا كافيًا فوق المكان، وتثاءبت «تينا». كان يومًا مرهقًا حافلا بالأحداث. وأدركت أنه يجب الاكتفاء بذلك، بالنسبة إليها على الأقل. وحاولت أن تنظر إلى «رامون» لكنه كان غارقًا في الحديث مع الرئيس، ولم يتنبه لها حتى عندما سعلت سعلة عالية ذات معنى، كي تلفت اهتمامه وتحركت غير مرة، بأمل أن يلتفت إليها، لكن ساعة أخرى كاملة مرت قبل أن يقف الحاضرون استعدادًا للتوجه إلى أكواخهم.

أوصل «رامون» «تينا» إلى كوخ بسيط ليس فيه أي سرير لينام الإنسان عليه. كانت الأرض مكسوة بخشب الخيزران. استدارت «تينا» نحو «رامون» وقالت:

- سعدت مساءً يا «رامون». أشكرك لاصطحابي إلى هنا. وزادها التعب عصبية فأردفت:

- إنني متعبة، هل تتفضل بالخروج؟ استدار على عقبيه، ناظرًا إليها ومواجهًا غضبها ببرود:

- يبدو أن الأمر ليس بهذه البساطة، إن هذا هو الكوخ الوحيد الموجود والصالح للنوم. وإذا لم تكوني راغبة في مشاركة نساء القبيلة في كوخ واحد، فأخشى أن أقول لك إنه ليس أمامك خيار سوى مشاركتي في هذا الكوخ.

- أشاركك؟! لكن هذا كوخي أنا.. أنت الذي يجب أن تبحث عن مأوى آخر. فقال ساخرًا:

- إن مضيفنا سيصاب بدهشة شديدة عندما يجدني لا أشارك امرأتي

كوخها، وكما قلت لك أيضًا ليس هناك كوخ آخر صالح للاستعمال. هز كتفيه، وسار عبر الكوخ إلى كومة من الحشائش الجافة، فحمل نصفها واتجه به إلى ركن وضعه فيه وأخذ يرتبه ليصنع لنفسه فراشًا، وهي تراقب غير مصدقة ثم قال:

- هأنذا أعددت فراشي، وأعتقد أنك اقتنعت الآن بأنني باق. ورمقها بنظرة خبيثة، وهو يتكلم بسرعة لم تستطع معها أن تجد الرد المناسب في حين استطرد هو:

- لا أعتقد أنك تعتبرين حقيقة أن النوم في كوخ واحد معي هو أمر مناف للتقاليد. أرفض أن أصدق أن خبيرة مثلك في الأدغال تفكر في مثل هذا الأمر وهي التي اعتادت النوم في الخلاء وسط الأدغال بين الرجال. إن لنا - نحن الرحالة كما تعلمين - قانونًا خاصًا للأخلاق، لا يهتم بما يفكر فيه ضيقو الأفق من أهل المجتمع. وفي اللحظة المناسبة، أدركت الفخ الذي ينصبه لها: إنه يشك فيها، ولكنه لا يستطيع الاتهام دون دليل.. وكأنه أراد بسؤاله دفعها إلى الاعتراف بأنها ليست خبيرة، ذلك أن مشاركة رجل في كوخ واحد هو أحد المآزق التي يقع فيها دائمًا المشاركون في مثل هذه الرحلات. كان ماكرًا، لكنها كانت أيضًا حسنة الحظ. فأدركت الخدعة في الوقت المناسب. ثم قررت أن تتجاهل الأمر، وتغير موضوع الحديث بعيدًا عن هذا المأزق. إنها حتى الآن لم تكن تتصور أنه جاد في عزمه على البقاء معها، إلا إذا قصد بذلك أن يكون نوعًا من العقاب. وبعد فترة سألت:

- ما رأي رئيس القبيلة، هل ينوي أن يسمح لنا بمقابلة الطبيب غدًا؟ كانت متأكدة أنه خلال الصمت الذي أعقب سؤالها راح ينظر إليها

www.rewity.com

مدققًا وهو يقدر تمامًا موقفها ويعرف كل المشاعر المضطربة التي تحاول أن تخفيها. كان يراها ويتمتع بها، ومع ذلك فإنه لم يضطرها إلى العودة إلى الحديث الذي تخلت عنه، لكنه عندما أجاب عن سؤالها، كانت لهجته تحمل سخرية عميقة:

– وعدني بأن يرسل أحد رجاله لإحضاره. كان توقيت حضورنا ممتازًا، لأن الطبيب حاليًا يجمع الأعشاب ليحضّر الدواء لمعالجة الزعيم من هذا المرض. كل شيء على ما يرام، سيكون هنا بعد الفجر بقليل.

– هذه أخبار رائعة! تبددت السحابة من عيني «تينا»، بعد أن شعرت بأن النجاح أصبح قاب قوسين أو أدنى. وزايلتها كل الآلام والمخاوف بعد أن أدركت أنها أصبحت قريبة من الهدف:

– في هذه الحالة، أعتقد أننا نحتاج إلى بعض النوم. فهل لك أن تذهب؟ وسارت في اتجاه الباب، وكأنها مضيفة تقف لتنتظر من ضيفها أن يغادر الدار. لكنه بدلا من تلبية دعوتها، سار بهدوء إلى فراشه، وتمدد عليه:

– لن أستطيع الجدال أكثر من ذلك، كان يومنا شاقًا ومتعبًا. وأشار إلى القش الملقى في الجهة الأخرى من الكوخ، وقال:

– أنصحك بشدة أن تأخذي أكبر قسط من الراحة، فستكون رحلة العودة غدًا أكثر مشقة من رحلة الحضور، إذا لم تستريحي!

– كنت أظن أنني في صحبة رجل مهذب. ونهض من فراشه غاضبًا وقال:

– هل كل واحد منا يبدو على حقيقته؟ أجيبي عن هذا السؤال. وامتلأ قلبها رعبًا من العنف الذي بدا على وجهه، وزاد خوفها وفاض، عندما همس:

– لست أدري لماذا تملكين القوة التي تثير غضبي دائمًا؟ منذ اللحظة الأولى التي قابلتك فيها وأنت تستمتعين باستخدام قوتك ضدي. لقد وجهت إليّ غطرستك وأغضبتني، وأهنتني، بل إنك حاولت إغرائي لا لسبب سوى مضايقة «أنيز». واضطربت «تينا» إلى الدرجة التي جعلتها لا تستطيع الرد، لكن عينيها عكستا كل الخوف الذي شعرت به عندما سمعت كلمته في حين زمجر هو بقسوة:

– إن الأمر يبدو رخيصًا وقذرًا، إذا أردنا وصفه، لكنه مع ذلك يطابق مقتضى الحال. أليس كذلك يا آنسة؟ ثم أطلق ضحكة خشنة، واتجه إليها مستطردًا:

– ولكن ماذا لو أنني قررت ألا أترك الموضوع بلا نهاية يا آنسة؟ وفي الحال أدركت قصده، وكما يفعل الطفل الخائف، أسرعت تحاول الهرب لكنه كان يقف أمامها ويسد الطريق وارتعشت وهو يجذبها من كتفيها إلى صدره العريض. وأرغمها على أن تنظر إليه. وقال:

– أنت تحفة فنية، هل تتصورين أنني سأسمح لك بالهرب مني مرتين؟ وقاومته بشدة، لتبعده ولوت رأسها لتتجنبه، وقد ندت عنها صرخة خافتة:

– لا. أرجوك لا. لكنها كانت تعرف أنها تقاوم بلا أمل فقد قرر أن ينفذ انتقامه كاملا. وفجأة، دفعها بعيدًا عنه، وهو ينتظر رد فعلها. كانت عيناها الخضراوان تفيضان بالألم، لكنها لم تعلق، وارتفعت الدماء إلى وجهه، وخفض ذراعيه إلى جانبيه، وتراجع خطوتين إلى الوراء، ولم تعد تراه في الظلام الكثيب. لكن صوته عكس غضبه، حين قال:

– إنك تحتاجين إلى الكثير لتتعلمي الإغراء يا آنسة، إن جاذبيتك تشبه

جاذبية الطفل الذي لم يستيقظ بعد. وتحولت عنه بعيدًا، وأسرعت إلى فراشها، واستلقت، تاركة لدموعها العنان، فنظر إليها وتمتم:

– لقد أصبح الموقف واضحًا بيننا الآن، ولقد أصبحتِ متأكدة أن مشاركتي إياك في هذا الكوخ لا تنطوي على أي خطر. إنني سعيد الآن؛ لأن بعض التقدم تحقق. أدارت «تينا» ظهرها لـ«رامون» محاولة أن تبحث عن مكان مريح لجسمها المرهق، وكان صوت استهزائه وسخريته يرن في رأسها، وظلت فترة محملقة إلى الظلام، تعاني خشونة الفراش، وتفكر في غرابة الوضع الذي وجدت نفسها فيه. كان صوت تنفس «رامون» العالي يملأ الكوخ، وقد هدأ النوم من ثورته، لكنها ظلت تشعر بقسوة وحدتها ووطأة الشعور بالهجر الذي كانت تعانيه في طفولتها وبدأت مخاوف الماضي تتسرب إلى نفسها شيئًا فشيئًا، حتى بدأت دقات قلبها ترتفع بتأثير الخوف.

استغرقت في نوم سيطرت عليه الكوابيس التي كانت نسيتها: العنكبوت المعلق يحملق إليها، وسمعت نفسها تصرخ حانقة لوالدها، تتوسل إليه أن يأخذها بعيدًا عن الأدغال، يا للمعجزة! في هذه المرة، أتى والدها، أخذ يربت رأسها وهي تتوسل إليه أن يسمح لها بالعودة إلى «إنجلترا» أو أي مكان، أن يبعدها عن الأدغال، وسمعت صوته الحلو يطمئنها، وشعرت بيده تربت جبينها، ثم انحسرت الأحلام القاسية، واستغرقت في نوم هادئ، وهي تشعر بشعور مريح، ووالدها يربت خدها ثم ينحني ليضع قبلة على جبينها.

- 7 -

بدا طبيب الأعشاب وكأنه من المعمرين، والندوب والتجاعيد التي تملأ وجهه تجعله أشبه ما يكون ببطل أسطوري، لكنه كان سريع الحركة، نشيطًا كأنه لا يزال في ريعان الشباب.. ظلت «تينا» أكثر من نصف ساعة تنتظر نهاية الحديث بين الطبيب و«رامون». وكان الوقت بعد شروق الشمس بقليل، وساحة القرية كلها خالية إلا منهم هم الثلاثة، وكان قد سبق لها أن استيقظت على صوت شخص يدعوهما إلى لقاء الطبيب الذي ينتظرهما، والذي يرجوهما أن يذهبا إليه قبل أن يعود إلى عمله بأسرع ما يمكن.

ويبدو أن سير المحادثات لم يكن مرضيًا، فقد كان الطبيب يهز رأسه بالرفض مرات ومرات، و «رامون» يواصل محاولاته، ولكن العجوز كان يواصل رفضه وهو ينظر إلى «تينا» بين لحظة وأخرى، وكأنها هي العقبة الرئيسية التي تدعوه إلى الرفض. أخيرًا هز كتفيه يائسًا، وعاد إليها وهي تنتظره بمزيد من القلق، وقال:

– يبدو أن الأمر مستحيل. قال لها ذلك بلهجة ناعمة رقيقة، جعلتها تنتفض من المفاجأة، وتراجعت إلى الوراء وهي لا تتصور هذا العطف المفاجئ. وكانت كل نبضة في عروقها تدعوها إلى الاحتراس. فأكثر ما تخشاه أن يصيبها الضعف، وتأسرها لهجته الحانية فتسلبها المقاومة، وتصبح لعبة بين يديه.

– مستحيل لماذا؟ هل هناك سبب وجيه لذلك؟ وتجنبت النظر إلى عينيه، فإن لمحة واحدة كانت كافية لأن تدرك أن القسوة التي كانت

تملأ عينيه الزرقاوين ذهبت إلى الأبد وهي لن تتحمل أبدًا هذا التأثير الذي ينبع من تعاطفه الجديد والذي تعرف جيدًا تأثيره فيها. أجابها ببطء:

– ليس للطبيب أي اعتراض على وجودي معه في أثناء تحضيره هذا المرهم الطبي، لكن اعتراضه ينصب على وجودك أنت، فهو يعتقد أن حضور أية امرأة عملية الإعداد وتركيب الدواء ستفسده وتجعله عديم الفائدة. إن هؤلاء القوم يعتبرون عقيدتهم وما يؤمنون به أهم شيء في حياتهم، وفي عقيدته أن تكوين الدواء نصف النجاح، والنصف الآخر يعتمد على هذه الطقوس التي يقومون بها. فهو يعتقد أنه إذا كانت النباتات التي يستعملها موجودة ودرجة حرارة النيران هي المطلوبة والأدوات التي يستعملها تمامًا كما يريد، فإن ذلك كله لا يساوي شيئًا إذا لم يتبع القواعد الموروثة التي انتقلت إليه عبر قرون طويلة، قبل أن يبدأ في عمله، فهو دائمًا يتأكد أن هناك أشخاصًا معينين يجب أن يكونوا موجودين لحظة إعداد الدواء، فهل تقدرين الآن الموقف الذي نواجهه؟

ونظر إليها صامتًا، في حين انعكست خيبة الأمل المريرة التي شعرت بها على نظراتها. كانت تتمنى أن تعود إلى عمتها منتصرة، وهي تحمل هذا الدواء الجديد، لتعلن لها انتصارها ونجاحها. كان ذلك نوعًا من الترضية الذاتية، ومن إسعاد عمتها التي خاب أملها في الرحلة، لكن، إذا كان ما يقوله «رامون» حقيقيًا، فلن يكون هناك سبيل للتغلب على هذه العقبة. وتملكها اليأس والشعور بالفشل، واهتز صوتها، وكأنها على وشك البكاء وهي تسأله:

– هل هذا هو رأيه النهائي والأخير؟ أليس هناك سبيل إلى إقناعه؟ واخترقتها عيناه كأنه يقرأ أسرارها، كل سر، وكل أمل، وكل خوف ينتابها، عرفه بقوة بصيرته، فهز رأسه، وتردد قليلا، ثم انثنى عائدًا إلى الطبيب. وبدأ الحديث مع الطبيب هذه المرة بعنف، وتصميم وقوة، حتى أن «تينا» بدأت تشعر بالعطف على الطبيب المسكين الذي وقف حائرًا. وعكس ما توقعت، بدا وكأن الرجل غير واثق تمامًا بقراره، فقد نجحت كلمات «رامون» العنيفة في تحقيق التأثير المطلوب، وكم كانت دهشة «تينا» وهي ترى «رامون» يرفع في يده بندقيته ملوحًا بها أمام وجه الطبيب الشاحب. وبعد الجدال العنيف بدأ الطبيب يتراجع، ثم استدار على عقبيه، وأسرع إلى الكوخ العام الكبير الذي بدأت تظهر فيه بعض مظاهر العمل. وعاد «رامون» إلى «تينا» مبتسمًا، ليشرح لها ما يشبع فضولها. قال:

– هددته بالقوة التي تحملها العصا النارية التي أملكها، لكني أكدت له في الوقت نفسه أنها سوف تسبغ عليه حمايتها إن هو نفذ كل ما طلبناه منه. وقد رفض في أول الأمر، وأصر على أن زوجته التي دخلت معمل الولادة اليوم، سيصيبها مكروه هي أو طفلها إذا هو عصى أوامر أجداده. وقد أكدت له أنني أعده بعدم حدوث أي ضرر للطفل أو لزوجته، ولكن لأن المخاطرة ستكون كبيرة، فقد اقترحت عليه أن يذهب إلى رئيس القبيلة لاستشارته فيما إذا كانت قوتي هي الأقوى أم قوة أجداده. فإذا وقف الرئيس في صفنا فستنالين ما تريدين، كل ما أرجوه، إذا أطاع أوامرنا، أن يأتي طفله في ولادة سهلة. وإلا... لكن «تينا» رفضت أن تضع أي احتمال آخر في اعتبارها، فالحصول على الدواء الآن هو

كل ما تحلم به وتتمنى الحصول عليه وهو يعني بالنسبة إليها أشياء كثيرة. فإذا نجحت، فسيكون جزاء عادلا على كل هذه المعاناة في هذه الرحلة. وسيهون بالنسبة إليها كل ما حدث لها في الأسابيع الأليمة التي عاشتها. ستصبح آلامها لا تساوي شيئًا إلى جوار هذا الانتصار، ولهذا قالت بإصرار:

– هذه أخبار رائعة، ولكن متى نعرف قرار الرئيس؟ مرة أخرى، زمجر «رامون» مترددًا ثم قال لها:

– هناك شيء آخر يجب أن تعرفيه: إن المسألة ليست بالبساطة التي تتصورينها، فإذا كنت تريدين الحصول على الدواء، فيجب أن تعرفي أن هذا لن يحدث بالسرعة التي تتوقعينها، وإنما سيكون علينا أن ننتظر ساعات وساعات وهو يقوم بطقوسه الدينية الطويلة، قبل أن يبدأ تحضير دوائه، ولسوء الحظ فإن هذه الاستعدادات لن تقل عن ثلاثة أيام.

وساد الصمت و «تينا» تحاول استيعاب هذه المعاني التي تحتوي عليها كلماته: ثلاثة أيام! كيف تستطيع أن تتحمل الحياة ثلاثة أيام ولياليها بالقرب من رجل تحبه، في حين أنه يعاملها بكل القسوة التي اشتهر بها الفاتحون من فرسان الإسبان؟ هل تستطيع أن تقاوم هذه الأحاسيس التي تعصف بها، وأن تتظاهر بالقوة والكراهية، أم أنه يستطيع أن يكتشف ضعفها؟ وكيف يمكنها أن تتحمل العذاب الذي تعانيه لو أنه استمر في رقته المفاجئة، والنظرات الساحرة التي سوف تسلبها دون شك آخر قطرة من كرامتها؟ ولكن، هل تضحي بالهدف الذي تحملت كل ما تحملت من أجله بعد أن أصبح قريبًا؟ هل تيأس والحلم يوشك

أن يتحقق؟ رفعت كتفيها، وقالت:

– إنني راغبة في البقاء، إذا وافقت أنت. بعد ساعة كاملة، رضخ الطبيب لنصيحة رئيسه، وقادهم وراءه إلى قلب الأدغال، واختار بقعة ليبدأ فيها عمله، قريبة من القرية، حتى يسهل وصول رسول ينقل إليه أخبار طفله الذي ينتظره من يوم إلى يوم، وأخبار زوجته التي تنتظر المولود. وشعرت «تينا» بالقلق، فقد كان يرمقها طوال الرحلة بين لحظة وأخرى بنظرات عدائية. وفكرت فيما يمكن أن يحدث لو وقع مكروه للطفل أو لأمه. وحاولت أن تمحو أية صورة للتوقعات المخيفة، وركزت نظراتها في البندقية التي حرص «رامون» على أن يحملها معه. وشعرت بالاطمئنان وهي تسير في حماها.

كانا يحملان معهما من الطعام ما يكفيهما ليومين أو ثلاثة، وبما أنهما لم يكونا قادرين على العودة إلى القرية يوميًا، فقد حمل «رامون» معه في حقيبته سريريهما المعلقيْن، والشباك التي تحميهما من الحشرات.. وبعد أن سار ثلاثتهم في الغابة مدة ساعة وصلوا إلى ساحة صغيرة. كان من الواضح أنها هي المعمل الذي اختاره الطبيب، فقد كان فيها بعض الأدوات والبقايا التي يستعملها العجوز، وكوخ صغير ينام فيه دخله الطبيب واختفى فيه فور وصولهم، وظل بداخله مدة طويلة من الوقت، كانت كافية لإعداد سريريهما المعلقين اللذين بقيا ينتظران من يشغلهما، في حين ظل الطبيب في داخل كوخه في انتظار الظلام. وكاد صبر «تينا» يفرغ. كانت قلقة تريد البدء في الحال. ويبدو أن الطبيب كان معارضًا لوجودها، ولكن أخيرًا، أمسك ورقة شجر في يده، وبسطها، ووضعها أمامها، وأدركت أنه يريد منها أن تجمع من الغابة، أكبر عدد

ممكن منها. وابتسمت، ولكنه واجهها بوجه متجهم غاضب وبكلمات لم تفهمها، ونظرت إلى «رامون» تطلب منه تفسير ما حدث، فقال لها مهدئًا:

– لا تدعي الرجل ينجح في استفزازك، يجب أن تقدري مشاعره، فهو يعتقد أنه أول رجل في قبيلته يضطر إلى خيانة تقاليد أجداده ويفشي أسرارهم، وهذا يجلب عليه العار مدى الحياة، وهو يعتقد اعتقادًا جازمًا الآن أنه سيصاب بمحنة كبيرة، عقابًا له على ضعفه، فيجب إذن أن نعذره، ونتمنى ألا تخونه شجاعته. سارا في الغابة المحيطة بالساحة صامتين، يجمعان الأوراق التي طلبها الطبيب. وكانت «تينا» سعيدة بهذا الصمت الذي لازمهما، وكانت أية حركة صغيرة بين الأشجار، كفيلة بدفعها إلى القفز مندفعة إلى جواره، ولكنه على الرغم من ملاحظته لما يبدر منها، فإنه لم يعلق على ذلك. وظلا يجمعان ورق الأشجار حتى غابت الشمس، ثم قفلا راجعين إلى الساحة، حيث كان الطبيب يجلس ساكنًا كالتمثال، محملقًا بتركيز شديد إلى كومة من الأعشاب، ورفع «رامون» يده داعيًا «تينا» إلى الصمت، ثم قادها في سكون إلى الجانب الآخر من الساحة حيث أقام سريريْهما. وقال لها محذرًا:

– يجب ألا نقطع عليه تركيزه. وبعد أن وضع أوراق الشجر على الأرض اتجه إلى «تينا» وقال:

– لماذا لا تستريحين؟ سأحضر لك طعامك.

– شكرًا، أفضل أن أحضره بنفسي. إذا كان ذلك لا يضايقك. اختفت النظرات الرقيقة من عينيه، وعاد الجمود إلى وجهه ثم قال:

– حسنًا، بما أنك ترفضين أن نكون صديقين، فلا شيء آخر يمكن

أن أفعله. وتهالك قربها جالسًا على جذع شجرة، ومد لها يده ببعض البلح الجاف، قائلا:

– آسف، ليس أمامنا خيار، ولكني غدًا سأجوب الغابة بحثًا عن طعام لنا وسأجد فاكهة، وجوز الهند، وربما عثرت على عسل أيضًا.

– أشكرك.

– نحن هنا المتحضران الوحيدان في هذه البقعة المهجورة، وعلينا أن نقدم مثلا طيبًا أمام هؤلاء المتوحشين الذين يستضيفوننا.. فنحاول أن نتناسى كل المشاحنات والحساسيات التي بيننا، على الأقل خلال إقامتنا هنا. وقفزت واقفة، ودفعت يده بعيدًا عنها ليتناثر البلح الجاف على الحشائش، وكان عليها أن تقول أي شيء لتخفي هذه المشاعر التي تجتاحها والتي تصرخ في أعماقها شوقًا إليه.. وخرج صوتها غريبًا وهي تقول:

– أنا لا أريد صداقتك، لا الآن، ولا غدًا، ولا إلى الأبد. الحقيقة أنه بعد ما حدث في الأمس فإنني أتمنى ألا أراك مرة أخرى في حياتي. إنني أعرف... اختلج صوتها وأكملت:

– إنك تفتقد صديقتك الجذابة «أنيز»، ولكن لن يكون هذا سببًا لأن تعاملني كبديلة لها.

– لكن ألم تكن هذه فكرتك في الأصل؟ واستعادت عيناه الزرقاوان نظراتهما الباردة العميقة، وعندما احمر وجهها، ضحك ضحكة خالية من المرح وكم كانت دهشتها إذ واصل قائلا:

– تعاليْ نعلن هدنة بيننا. يكفي هذه البقعة من الأرض وما فيها من مظاهر العداء والحروب الوحشية، هيا تعاليْ. ومد يده إليها، قائلا:

– إنني أعتذر إليك عن كل ما سببته لك من مضايقات، تعالَيْ نتصافح، ونتعاهد على أننا إذا لم نكن قادرين على أن نكون صديقين فعلى الأقل لنمتنع عن أن يضايق كل منا الآخر. أرجوك قولي إنك موافقة. وارتفعت دماء الخجل إلى وجنتيها، وضاعت في حيرة. أما هو فابتسم ومد يده إلى آخرها فأحست كأنها مسحورة تمامًا. رفعت يدها ببطء حتى أصبحت في متناول يده، وارتعشت وهي تشعر بقبضته القوية في حين همس هو في رقة:

– «تينا»، أشكرك على كرمك.. هل تسمحين بأن أسمع صوتك ينطق باسمي؟ ستعطينني أملا في أننا قد نصبح يومًا صديقين. في هذه اللحظة ضاعت كل شكوكها. وأدركت أنه يطلب منها أمرًا بسيطًا جدًا، فهتفت:

– حسنًا يا «رامون». نطقتها بسعادة، وخفة فرفع يدها إلى شفتيه، وانتظر قليلا. قبل أن يلثمها ثم تنهد معبرًا عن ارتياحه العميق. وأخذ يراقبها بعينيه نصف المغمضتين وهي تتناول طعامها.. ولم تعد تشعر بالجوع. اكتفت بما أكلت. لكن الفترة التي قضتها في مضغ الطعام كانت فرصة لأن تحاول أن تجمع أفكارها، وتسيطر على أعصابها، وتخرج من هذه الحالة السحرية التي جذبتها إليه. وأفقدتها وعيها واستطاعت أن تسيطر على مشاعرها بعض الشيء، في حين كان «رامون» بجسمه الضخم متمددًا على الأرض وهو يدرك تمامًا كل العواطف التي تعتمل في صدرها.

واستغرقت في الاستماع إلى أحاديثه المسلية المثيرة وهو ينتقل من موضوع إلى آخر في سهولة وطلاقة: من الحديث عن جمال الأدغال ووحشيتها.

إلى الأماكن الغامضة والغريبة التي زارها، ثم إلى هؤلاء الناس المتوحشين الذي يحاول جاهدًا أن يساعدهم. وأدهشتها رغبته الملحة في مساعدة الناس وحساسيته الرقيقة، وروحه الشفافة، وتأكدت أن ذلك هو الوجه الآخر لهذا الرجل القاسي الصعب المراس، وأن هذه هي الشخصية المثالية لما يجب أن يكون عليه المكتشف الحقيقي. وتحدث عن منزله وأهله الذين يعيشون في الأراضي الخصبة التي تمتلئ بالخير، تحدث عن أشجار الموز وجوز الهند وقصب السكر وكل المزروعات الاستوائية، وعن البن الذي ينمو في بلاده، وقطعان الماشية التي تمرح على سفوح الجبال.. وهنا قاطعته:

– لماذا ترحل كثيرًا على الرغم من أنك سعيد في وطنك؟

– ربما لأنني أريد أن أمحو من تفكير هؤلاء المواطنين البسطاء الفكرة التي رسخت في أذهانهم عن وحشية الرجل الأبيض. فمن سوء الحظ أن أول من غزا أرضهم كانوا مجموعة من الباحثين عن المطاط، وقد عاملوهم بقسوة، ربما لخوفهم منهم. فلم يفرقوا بينهم إطلاقًا وبين الحيوانات، ولم يراعوا تقاليدهم ولا معتقداتهم. وقد أوفدتني الحكومة البرازيلية على رأس بعثة لإقامة علاقات مع هؤلاء البسطاء الطيبين، ولمحاولة تحريرهم من قسوة الجهل الذي يعيشون فيه، وحتى يأتي اليوم الذي يستطيعون فيه الحياة مثل سائر البشر، ويتعاملون معهم بالطريقة المتمدنة نفسها، تمامًا مثل ما حدث مع الهنود الحمر في «أمريكا الجنوبية».

– «رامون»، أرجوك أن تستمر. أريد أن أستمع إلى المزيد. وقفز جالسًا بخفة ورشاقة وابتسم لها قائلا:

– ولكنني تحدثت عن نفسي بما فيه الكفاية. أريد أن أعرف عنك أنت الكثير، كل ما أعرفه أنك إنجليزية. إنجليزية جدًا، وإنني في شوق إلى أن أعرف كل شيء عن كل ما يحيط بك: العالمة الشهيرة في علم النباتات، العروس الثلجية، ذات القلب الوحشي.

– ليس هناك الكثير الذي يمكن أن تعرفه عني، فليس هناك ما يثير الفضول.. إنني أقضي وقتي بين العمل في حدائق النبات في «كيو»، وأدرس خلال أوقات فراغي، وأعيش مع عمتي في «لندن»، وبين وقت وآخر نقيم بعض مآدب الغداء لأصدقائنا المقربين وهم غالبًا من العلماء، وأحيانًا نخرج إلى المسرح، أو نتناول العشاء في مكان عام. وبالمقارنة بحياتك، فنحن نعيش حياة روتينية.

– إن هذا يدهشني! وكانت كلماته كرنين الإنذار في أذنيها. عرفت الآن أنها في غمرة هذه الجلسة الشاعرية نسيت حذرها وتورطت في اعتراف لم تكن تود قط أن تكشفه. كان حديثه قد بعث الثقة في نفسها، فوجدت نفسها تتحدث بصدق وصراحة، واستطاعت بكل قوة أن تنبه نفسها لوجوب أن تكون حذرة فقالت مستدركة، وهي تقذف بأكذوبتها:

– طبعًا هذه هي حياتي في الأيام التي أكون فيها في «لندن»، ولكن من حسن الحظ أن هذه الأوقات تكون قليلة عادة، ولولا الرحلات التي أقوم بها وتغير سير الحياة الروتينية هذه، لما استطعت أن أتحملها.

– آه، فهمت. لكن صوته كان خاليًا من أي تعبير، وشعرت بأنها خيبت أمله بطريقة لم تدركها، وحولت وجهه إلى الجمود. ولم تستطع أن تدرك شيئًا من نظراته، فقد أرخى أهدابه السوداء الطويلة، فلم تستطع أن تقرأ فيها شيئًا. ثم استدار بعيدًا عنها، حتى

لم تعد ترى وجهه، وفي صوت هادئ قال:

– إن الوقت متأخر، وقد حان موعد الرقاد، تصبحين على خير. وأحنى رأسه واستدار بعيدًا.. وغاص قلبها وهي تراه يعود إلى قسوته، وعندما رأته يذهب، ضاع صوتها الذي أرادت أن ترد به على تحيته، ضاع تمامًا في الصمت الشامل الذي يحيط بالمكان.

- 8 -

في الصباح التالي، كان من الواضح أن طبيب القبيلة قد قرر أن يتراجع عن وعوده. وهو لم يعلن ذلك صراحة، لكن تصرفاته كانت تدل بوضوح على نيته، فقد استمر في تجهيز معداته، وبعد أن جمع جذور النبات والأعشاب المطلوبة كلها، ووضعها فوق أوراق الشجر التي جمعها «رامون» و«تينا» في اليوم السابق، لم يبد أية رغبة في الاستمرار، وإنما توقف تمامًا عن العمل، وجلس صامتًا يحدق إلى اتجاه الأدغال، وكأنه ينتظر حادثًا معينًا ثم يعود ليرفع بصره نحو السماء التي بدأت الشمس تتوسطها، وتشتد حرارتها. ولم يحاول أن يهتم إطلاقًا بكلمات «رامون» الحادة، ولا محاولاته لحثه على الاستمرار في العمل، بل تجاهله تمامًا، وظل ينتظر إشارة تدل على أنه ليس مغضوبًا عليه نتيجة تصرفاته.

بعد لحظات، سمعوا صوت خطوات فوق العشب الجاف تخترق الدغل القريب المحيط بهم، ثم ظهر رجل يحمل رسالة إلى الطبيب، واتجه إليه فورًا. كان الرسول يلهث في اضطراب، ويبدو أن الرسالة كانت تحمل مزيدًا من المشاكل، فإن «رامون» بنفسه لم يستطع أن يهدئ من

القلق الذي اعترى وجه الطبيب، وظهر واضحًا على حركاته وإشاراته وهو يجادل «رامون فيغاس»... ظلت «تينا» تنتظر، حتى نفد صبرها، فأسرعت إلى حيث وقف الرجال الثلاثة وجذبت «رامون» من ذراعه وسألت:

– أرجوك أخبرني بما حدث، ما هذا الموضوع المثير الذي أثار الجدل؟

– وضعت زوجة الطبيب طفلا ذكرًا.

– خبر عظيم، رائع، إذن سيمكننا أن نواصل العمل...

– كلا، لقد أعلن الطبيب بإصرار أنه لن يكمل العمل، فهو يقول إنه إذا أتمه – كما وعدنا – فسيمرض طفله ويموت، ويجب أن ينتظر ستة أشهر أخرى قبل أن يجرؤ على مواجهة الأمر، ولأن المولود ذكر فهو يخشى أن يضحي به.

– إذن، لن نستطيع أن نفعل شيئًا إذا كان قانون الغابة يحرم عليهم هذا. ولكن يبدو أن «رامون» لم يكن في نيته أن ييأس، إذ قال:

– إن قوانين الغابة هي الحجة التي يحتمون وراءها دائمًا عندما يريدون أن يمتنعوا عن تقديم عمل لا يرغبون فيه، وأعتقد أنه آن الأوان للتحايل على الطبيب. وأسرع يستدير إلى الطبيب الرافض ويتحدث إليه. وازدادت دهشة «تينا» وهي تراه يُخرج من جيبه علبة فيها أقراص من النعناع، وضع قرصًا أبيض منها في يد الطبيب المفتوحة، وكان طوال الوقت يتحدث بسرعة. فأمسك الطبيب القرص بين أصابعه وأداره عدة مرات بينما كان «رامون» يواصل حديثه، ثم وضع القرص في فمه.

ظل وجه الطبيب فترة جامدًا تمامًا بلا تعبير، ثم تحول شيئًا فشيئًا إلى دهشة شديدة ممزوجة بالخوف، وفتح فمه ليسنح للحرارة التي ألهبت

فمه أن تهدأ، وتصارع في نفسه الخوف والسرور، وبدت المعركة على ملامح وجهه واضحة بينما وقفت «تينا» مع «رامون» في صمت تام في انتظار قراره، وأخيرًا، وبعد لحظات مشحونة بالقلق، انحنى فجأة وجثا أمام قدميّ «رامون فيغاس»، ثم قفز واقفًا وأسرع إلى كوخه، وفي هذه اللحظة، عرفت «تينا» أنهما انتصرا في معركتهما مع الطبيب.

فاستدارت إلى «رامون» وسألته:

– أرجوك، هل يمكن أن تُشبع فضولي، وتشرح لي ماذا قلت له؟

– هل تريدين أن أشرح لك التفاصيل، أم تريدين الخطوط العريضة؟

– أي شيء، فقط أخبرني.

– ذكرته بأن أشهرًا عديدة مرت، وقومه يعلمون أن كلامي معهم دائمًا هو الصدق والخير، وأن البضائع التي أحضرتها إليهم لم تكن فاسدة، والسكاكين التي قدمتها إليهم تعمل أفضل من أي شيء قاطع لديهم، وذكرته أيضًا باليوم الذي استعملت فيه عصاي النارية ضد القوى الشريرة في الغابة. وأخيرًا قلت له إنه لو وضع أحد أقراصي اللاذعة على لسانه، فلن يحدث أي مكروه لولده الذكر، بإذن الله. وأشار برأسه جهة الطبيب الذي كان مشغولا في العمل، وأردف:

– إنني أحمل أقراص النعناع معي باعتبارها الورقة الأخيرة الرابحة، ولو أنها فشلت في إقناعه لما استطاعت أية قوة في الوجود أن تقنعه.

وانقضى اليوم وهما يراقبان عمل الطبيب.. كان يضع قطعة مسطحة من الحجر في مكان معين ومعها قطعة كعينة من الخشب، يدق بها النباتات التي جمعها، وبين لحظة وأخرى كان يسرع إلى كوخه ليستريح قليلا، ثم يعود منتعشًا ليواصل عمله. وبعد أن انتهى من هذا الجزء من العمل،

أسرع إلى الأدغال يبحث عن نوع معين من الأغصان يوقد بها نيرانه، وبعد أن اشتعلت النيران وارتفع لهيبها، وضع القدر عليها في زاوية معينة، ثم وضع فيها بعض الماء استعدادًا لإضافة النبات المطحون الذي كان قد أعده. إلى هنا كان العمل يسير كما تريد «تينا»، ولكن عندما بدأ في الاستعداد لإضافة النباتات المطحونة، صاحت بصوت مرتفع:

– لا، لا، ليس الآن... فقفز من مكانه خائفًا بعيدًا عن النار، وأحست أنها تكاد تموت خوفًا، ونظرت إلى «رامون» مستنجدة وقالت:

– يجب أن أزن هذه النباتات المسحوقة التي سيضيفها، فدون الميزان لن يكون لملاحظاتي أية فائدة. أرجوك اشرح له هذا. واستدار بعد أن أومأ برأسه موافقًا. وبدأت مناقشة حادة بينه وبين الطبيب المذعور، وراقبتهما «تينا» وهي تحاول جاهدة أن تفهم شيئًا. وشعرت باليأس يغمر قلبها عندما أشار الطبيب إشارة رفض قاطعة. وثمة كلمات أخرى شديدة قيلت، وردود غاضبة ارتفعت. قبل أن يجلس طبيب الأعشاب مرة أخرى – وهو يرمقها بنظرة كراهية – ثم قدم مجموعة المساحيق التي معه إلى «رامون» الذي نظرت إليه «تينا» مستفهمة، فقال لها بلهجة شديدة الجدية:

– رفض أن تلمسي عقاقيره، ولكنه سمح لي أخيرًا بأن أقوم بما تريدين بنفسي، اشرحي لي بسرعة ما يجب أن أقوم به قبل أن يغير رأيه. فسارعت «تينا» تشرح له طريقة استعمال الميزان الدقيق الصغير الذي أحضرته معها، وكان ينفذ تعليماتها بدقة شديدة، وفي اللحظة التي كان هو يقوم فيها بمراقبة الميزان، كانت هي تقيد ملاحظاتها بالأرقام، كل وزن على حدة، قبل أن يعيده إلى الطبيب الذي يضيفه إلى مياه القدْر.

وكانت أعصابها تزداد توترًا، وهي تراقب كل حركة من حركاته، فقد كانت تخشى أن يضيف نوعًا مجهولا من النبات دون أن تراه، يكون له تأثير فعال في العقار، يتعمد أن يخفيه عنها. فظلت مشدودة إليه. وكان تصميمها على ملاحظة مراحل العمل بدقة كفيلا بأن يجعلها تلتصق إلى جواره، حتى بعد أن خرج «رامون» إلى الغابة بحثًا عن طعام.

وساد صمت ثقيل، بعد أن خرج «رامون»، وشعرت بالخوف يخنق قلبها، والعرق البارد يغمر جسدها. وعلى الرغم من أن الطبيب كان يتجاهل وجودها تجاهلا تامًا، إلا أنها كانت تشعر بكل حواسها أن هناك رائحة قوية تملأ المكان حولها. رائحة الكراهية العنيفة التي تصدر عن هذا الشخص الصامت الساكن الذي يقبع بجوارها.

وعندما دخل «رامون» ومعه رسول إلى الطبيب، وجدت نفسها ترتمي بين أحضانه، وهي تلقي بكل خوفها بين يديه. وتنقّلت نظراته الحادة بين وجهها الشاحب ووجه الطبيب الجامد كالقناع وسألها:

– ماذا حدث، لماذا ترتعدين؟ هل أخافك؟ وهزت رأسها نفيًا، كانت مرهقة إلى الدرجة التي جعلتها لم تستطع أن تشرح له الخوف الذي انتابها، ولم تقل غير كلمات متقطعة:

– أرجوك، لا تتركني وحدي معه مرة أخرى.

– حاولي ألا تضايقي نفسك، وأعدك بأنني لن أتركك وحدك مرة أخرى. وعندما نظرت إليه، وجدت نظراته تتجه إلى الرسول الذي حضر معه. كانت المناقشة حادة بحيث جعلتها تشعر بأن هناك عائقًا آخر ظهر في الأفق، ولاسيما عندما لاحظت أنه قطب بشدة ما بين حاجبيه. وقال لها بغضب:

– الرسول يخبره بأن ابنه أصابه المرض والضعف، وزوجته تتوسل إليه أن يعود سريعًا إلى القرية، قبل أن يفوت الأوان.

– هل يتوقعون موت الطفل؟

– إنني غير متأكد ما إذا كانت هذه المزاعم حقيقية، أم أنها خطة أخرى رسمها الطبيب حتى يتمكن من التملص. وتابعت عيناها هزة رأسه وهو يشير إلى الطبيب الذي اندفع إليه، وقد بدا القلق والحزن في عينيه، ثم تحدث إلى «رامون» فورًا. وعرفت «تينا» أنه قرر أن يرحل نهائيًا. كان يتحدث ويهمس بصوت كالفحيح، وبغضب واضح، وهو يبلغه الأنباء التي نقلت إليه حالة ابنه الصحية، ثم استدارا إليها وقفز تحت قدميها بشراسة، ففهمت أنه يُحملها تبعة ما أصاب طفله!

أمر «رامون» الطبيب بأن يتوقف عن حركاته فورًا. وظلت «تينا» تراقب وتستمع وهي تلوم نفسها على جهلها التام بهذه اللغة التي يتجادلان بها. فهي لا تفهم كلمة واحدة مما يقال، لكنها لاحظت رد فعل الطبيب، وشعرت بالراحة؛ فقد تحولت مشاعر الطبيب من الغضب إلى القلق بعد أن وجه إليه «رامون» ما يبدو أنه سؤال حاد، فهز رأسه في يأس ثم عاد مسرعًا إلى قدوره. قال «رامون» وعيناه الزرقاوان تلمعان:

– كانت حيلة كما توقعت، دبرها ليتخلص من وعوده لنا دون أن يثير غضب عصاي النارية.. وعندما عرضت عليه أن أعود معه لمساعدة عائلته، حاول أن يتملص بأعذار واهية أقنعتني بكذبه، لكننا على الأقل استطعنا أن ننتهي من هذه الحيل إلى غير رجعة. هددته بأن سحر عصاي السحرية سوف تنقله في الزورق الأبدي إلى الموت، إذا حاول أن يكرر أكاذيبه أو حيله، وأنا متأكد أننا لن نعاني ذلك بعد الآن. والأهم

من ذلك أنه وعدني بأن الدواء سيكون معدًا في الصباح. اطمئني، لن يقوم بأية حيلة بعد ذلك، ويمكنك أن تستريحي حاليًا، وأنت مطمئنة.

وكان محقًا؛ ففي فجر اليوم التالي، وضع الطبيب بين يدي «تينا» علبة من الخشب الصلب فيها دواء يشبه المرهم، رمادي اللون، فحملته بعناية وأسرعت به إلى «رامون» وكأنها تحمل إكسير الحياة. قالت وهي لا تصدق نفسها:

– حصلت عليه.. أخيرًا حصلت عليه. وانفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة، وأمسك بذقنها ورفعها عاليًا ليبعد عينيها عن الكتلة الرمادية. وقال مهنئًا:

– صحيح! إن قلبي يرقص فرحًا من أجلك. إن التضحيات التي قدمتها لتحصلي عليه، تجعلك تستحقين مكافأة. أخذت تراقب «رامون» وهو يعيد ربط الأسرّة ووضعها في حقيبته، وكان ينظر إليها بين لحظة وأخرى وكأنه يتمتع بمنظرها وهي تضم علبة الدواء إلى صدرها، لكن هذه النظرات كانت تدفع القلق إلى عينيها الواسعتين. فمما لا شك فيه أن له دورًا كبيرًا في الوصول إلى هذا النجاح. فمن دونه ما كان يمكنها أن تصل إليه. وأرادت أن تعبر له عن شعورها بالاعتراف بالجميل ولكن، كيف؟

لم تستغرق رحلة العودة إلى القرية وقتًا طويلا.. وقابلهما أهل القرية بالترحاب، حتى أنها لدهشتها الشديدة شعرت بالأسف عندما فكرت في أنها ستغادرهم، لكنه كان شعورًا مؤقتًا، فهي تتمنى لو نبتت لها أجنحة، إذن لطارت بها فورًا إلى «لندن» إلى عمتها لتقدم لها هديتها. وفي غمرة الانفعال الذي أصاب الجميع بعودتهما، لاحظت أن الطبيب

تسلل مسرعًا إلى الكوخ الذي تقيم فيه زوجته، ليطمئن عليها وعلى طفله، وما لبث أن عاد غارقًا في الابتسام. ولم تعد هناك حاجة إلى مطالبة «رامون» بأن يفسر لها ما يقوله الطبيب، فقد كان في وجهه المبتسم وصوته الضاحك دليل واضح على أن كل شيء على ما يرام. فاستمع إليه «رامون» باهتمام. وابتسم وهو يستدير إليها ليقول:

– إن الطفل وأمه في حالة جيدة، والطبيب في غاية الدهشة؛ لأن سحري أقوى من سحر أجداده، وقد كان يعتقد أن شيئًا من هذا هو في حكم المستحيل. وهو يقول إنه سيطيع أوامري منذ الآن في كل ما أريد، ويقول أيضًا إن طعم الأقراص التي تناولها كان لذيذًا جدًّا.

– هذا شيء رائع. إن معتقداته سوف تنتشر الآن بين جميع مواطنيه، سيؤمن الجميع بك وستنتشر الأخبار في كل مكان: في الغابات والطرق والأحراج والأدغال، وفي أي مكان ستذهب إليه سيقابلونك بالترحاب، إنني سعيدة جدًّا. ووضعت يدها على ذراعه، وواصلت بحماسة:

– استطعت وأنت تساعدني على الوصول إلى هدفي، أن تقطع شوطًا بعيدًا إلى هدفك أنت أيضًا. فمنذ الآن، وفي كل مكان في «الأمازون»، سيعرف المواطنون أن اسم «كارامورو» يمثل لهم الصدق والإخلاص والمساعدة لكل محتاج. واضطرت إلى التوقف، وشعرت بأنها تحتاج إلى الحذر وهي تتأمل نظراته. ماذا فعلت؟ هل تجاوزت الحدود؟ هل استطاعت الحماسة المتزايدة أن تفشي سر هذه المشاعر وهذا الحب الذي تشعر به نحوه؟ حاولت أن تنظر بعيدًا، لكنها لم تستطع، فقد كانت أحاديث المواطنين وضحكاتهم تملأ المكان، ولكنهما كانا في عالم وحدهما. وتوترت أعصابها وهي تنتظر منه أن يكسر هذا الصمت،

وطغى سوء الظن على عقلها، ودفع الألم وجهها إلى الاحمرار، حين قرأت في ابتسامته البطيئة علامات الانتصار والرضا. إنه يعرف، وكان ذلك واضحًا عندما وصلت ابتسامته إلى عينيه، فقد ضحك وجهه كله وهو يأخذ يدها بين يديه ويسألها:

– وماذا عنك أنت. أعني بالنسبة إليك؟

– هل هذا مهم لك؟

– أريد أن أعرف ما إذا كنت قد غيرت فكرتك عني، نعم، هل تذكرين ما قلت لي قبل أن نغادر «مانوس»، وهو أنني سأكون موضع اختبار خلال هذه الرحلة. فهل تلومينني على شوقي إلى معرفة ما إذا كنت قد أصبحت بريئًا أم متهمًا؟

– أستطيع أن أقدّر أشياء كثيرة تمتاز بها. إنك بلا شك صادق في تحقيق رغبتك وفي مساعدة مواطنيك، ولا أستطيع تجاهل مقدرتك على القيام بمهنتك بكفاءة. لكن اعتراضي الوحيد هو ضعف ذاكرتك.

– ذاكرتي؟

– نعم، وكان من الممكن أن أغفر لك محاولات الإغراء التي تقوم بها دائمًا، لو لم يكن هناك إنسان آخر، ولكني أعتقد أن هذه حقارة منك أن تحاول خيانة ثقة شخص آخر. كانت سعيدة؛ لأنها استطاعت أن تذكره بـ«أنيز»، فإنه يستحق أن تؤلمه، تمامًا مثلما تشعر هي بالألم. فهي لا تستطيع أن تتحمل كلامه الحالم، وهذا الجو السحري الذي يحيطها به بحكم أنه يستطيع أن يذيب قلبها في دفئه، لكنها الآن ستكون بعيدة عنه إلى الدرجة التي تجعله لا يحاول أن يصل إليها. ستكون قادرة على تحمل الصمت والغربة والوحدة التي تنتظرها في الأيام

القادمة. وكان من الواضح أنه لم يفهم أنها تشير إلى «أنيز»، لكنه فهم بقية الكلمات، فظهر الغضب البارد في صوته. وقال:

– يا آنسة «دونيللي». لم يعد هناك شيء نقوله. وانبعث من عينيه لهيب أزرق، وهو يستطرد:

– للمرة الثانية تلصقين بي التهم جزافًا، وإني أعتبر كلامك هذا إهانة لي ولأبناء وطني جميعًا، فإذا كنت تعتقدين أن عرض صداقتي عليك يتعارض مع إخلاصك وولائك لـ«برانستون»، فاسمحي لي أن أقدم لك اعتذاري. ولكن.. ورفع يده يمنعها من الاعتراض ثم أردف:

– أؤكد لك أنني لم أكن أعلم أن علاقتك به حميمة إلى هذا الحد. وحملقت إلى وجهه مضطربة.. وفي الوقت المناسب توقفت عن الاعتراض، فإذا كان تصوره أنها تحب «برانستون» سيصون كرامتها، فيجب أن تتركه يواصل هذا التصور. وبكبرياء قاسية، رفعت رأسها متحدية نظراته واحتاج ذلك منها إلى مجهود جبار، وهي تشعره بأنها تفقده إلى الأبد، وقالت:

– الآن وقد عرفت، أعتقد أنه يمكننا أن نواصل الرحلة.

- 9 -

لم يترك رئيس القبيلة ورجاله «رامون» و«تينا» إلا بعد أن أوصلوهما إلى القارب الصغير عند النهر، وساروا معهما في طريق عبر الأدغال مختصرين المسافة. وصافح الاثنان الزعيم وقبيلته مودعين إياهم، قبل أن يساعدوهما على النزول إلى القارب وراحوا يلوحون لهما من الشاطئ

طوال انزلاق زورقهما في النهر، حتى غابا عن أبصارهم عند أحد المنحنيات. وانتهت مرحلة من مراحل الرحلة الشاقة.

جلست «تينا» عند نهاية القارب، وهي تضم صندوق الدواء إلى صدرها متشبثة به، وكأنه تعويذة تحميها من شر «رامون» وغضبه، راحت تحملق إلى ظهره العريض صامتة، وهو يجذف عبر النهر بأقصى سرعة ممكنة. وكانت ضربات المجداف في جوف المياه تعبّر عن قوة الغضب الكامن في نفسه. ولم تعد له بـ«تينا» أدنى ثقة، حتى لتبادل الحديث. وحاولت أن تتناسى هذا الموقف، بالتفكير في اللحظة التي ستندفع فيها إلى عمتها وتُطْلعها على اكتشافها العظيم وانتصارها الساحق، ولكن حتى هذا الخاطر لم ينجح في انتشالها من أفكارها، لم يستطع أن يمحو من ذهنها المرارة التي تشعر بها منذ المشهد الأخير في الليلة الماضية. فمنذ اللحظة التي أطلقت فيها كلماتها القاسية المعبرة عن الاحتقار، انقطع حبل الود الذي كان قد بدأ ينمو بينهما خلال الأيام القليلة الماضية. ولم يوجه هو إليها أية كلمة، ولا حتى نظرة سريعة تشعرها بوجوده. ومرت ساعات طويلة، كئيبة. ولم تعد «تينا» تتحمل الصمت، الذي غدا ثقيل الوطأة، مرهقًا لأعصابها، أكثر من تلك اللحظات الرهيبة التي مرت عليها مع طبيب الغابة الذي حاول السيطرة عليها وتحطيم أعصابها، خلال انفرادهما في ظل الصمت العميق.

كانت تريد أن تتكلم، أن تصرخ، لكن في اللحظة التي حركت فيها شفتيها، إذا بالقارب يستدير ليدخل أحد المنحنيات، ولمحت على شاطئه بكل حواسها وعينيها السفينة المحلقة تقف بعيدًا بعيدًا على الشاطئ. واستراح قلبها وبدأت نهاية رحلة العذاب تقترب، ولأنها

لم تكن تعرف الطريق، كان ظهور السفينة مفاجأة لها، فلم تكن مستعدة حتى الآن لمواجهة أفراد المعسكر، وارتفعت صيحة ترحيب من القبطان «جوزيف روجرز»، وفي الحال، كان الشاطئ يعج بالمرحبين وصيحاتهم تتعالى.

ووسط الضجيج، والانفعال والترحيب، وبعد أن ساعدهما البحارة على النزول من القارب، قابلتهما «أنيز»، وقد وقفت جامدة، منتصبة في مكانها. وصاح «رامون» وقد علا صوته فوق كل الأصوات المليئة بالحماسة والفضول:

– أرجوكم وقبل كل شيء، نريد طعامًا سريعًا، وبعد أن نأكل نجيب عن كل أسئلتكم، ونشبع فضولكم. وبعد موجة أخرى من الترحيب والتهاني، انسحبوا مسرعين لإعداد الطعام. وعندما أصبحت الساحة خالية إلا منهم هم الثلاثة، تحركت «أنيز»، واندفعت وقد فتحت يديها، وأطبقتها على كتفي «رامون» لتضمه إلى صدرها، محتضنة إياه في شوق بينما استدارت «تينا» بحدة، واثقة بأن غيرتها الشديدة انعكست على نظراتها. ولاحظها «ثيو» فورًا، وقد ظهر من حيث لا تدري، وأمسك بها، وأطبق عليها ذراعيه بقوة لم تستطع أن تقاومها، ولكنها نجحت في الخلاص من بين يديه اللتين أمسكتا خصرها بقسوة.. وحركت رأسها بعيدًا في اللحظة المناسبة. وعندما حركت رأسها، وجدت عينيها تلتقيان بعيني «رامون». كان يقف محتضنًا «أنيز»، لكن نظراته الحادة كانت تراقب لقاءها بـ«برانستون»، وتلاحظ رد فعلها إزاء حرارة اندفاعه. وبدأت أعصابها تهدأ. وقالت «تينا»:

– «ثيو».. أليس رائعًا أن نلتقي مرة أخرى؟ هل اشتقت إليَّ؟

– طبعًا. لقد افتقدتك بجنون.. والحقيقة التي يجب أن أصارحك بها، هي أننا لو كنا نعرف طريق القرية التي ذهبتِ إليها، لكنا خرجنا للبحث عنك. ونظر إلى «أنيز» وقال:

– أليس كذلك يا آنسة «أنيز»؟ فتهالكت نظرات «أنيز» المشحونة بالكراهية على وجه «تينا»، وقالت:

– هذا صحيح. ثم استدارت بتعبير آخر، كله إغراء، إلى «رامون» وقالت:

– أنت لا تعرف مقدار القلق والألم الذي شعرت به عندما عرفت أنك رحلت دون أن تأخذني معك. طبعًا، أنا متأكدة أن هذه هي فكرة الآنسة «دونيللي»، فالمرأة الإنجليزية هي الوحيدة القادرة على البقاء ثلاثة أيام بلياليها وسط الأدغال مع رجل هو قبل كل شيء غريب عنها. واشتعل غضب «تينا» ووصل إلى درجة الغليان، لكن اندفاعها للرد العنيف أوقفه هذا الغضب الذي ارتسم على وجه «رامون»، وهو يواجهها:

– «أنيز» هذه الملاحظة غير حقيقية، وغير عادلة على الإطلاق. ذهبنا إلى الأدغال للعمل، ولن أذكرك بأن وظيفة الآنسة «دونيللي» دقيقة جدًا وتحتاج إلى مجهود شاق لا يسمح بتضييع الوقت. إن هدفها الرئيسي هو مساعدة البشرية للتغلب على آلامها. وقد نجحت في ذلك، ولهذا فإن أي شك يجب ألا يقوم في مثل هذه الظروف، وأقترح عليك أن تكفي عن مثل هذه التلميحات، وعن الخوض في الحديث حول هذا الموضوع مرة أخرى هل فهمت؟ واضطربت «أنيز»، فلم تكن ترغب إطلاقًا في إثارة غضبه. ولم يعجبها دفاعه السريع وإضفاء كل هذه البطولة على الفتاة التي أصبحت تمثل بالنسبة إليها في الواقع غريمة خطيرة. وأرخت

أهدابها السوداء الطويلة على عينيها، وابتلعت المرارة التي غمرت قلبها بسبب كلماته. وكانت «تينا» تنظر إليها وقد أفعمت مشاعرها غضبًا وقسوة. قالت «أنيز» معتذرة وقد تمالكت أعصابها:

– آنسة «دونيللي» أرجو أن تقبلي اعتذاري. يبدو أن دعابتي لم تكن في محلها. وأومأت «تينا» برأسها معبرة عن قبولها الاعتذار. وخلال العشاء، انهال عليهما سيل الأسئلة من كل جانب، وكان الفضوليون لا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا سألوا عنها. كل التفاصيل استفسروا عنها. وشعر الجميع بالفخر والإعجاب وهم يشبعون فضولهم حول هذه الرحلة الناجحة. وأشبع الجميع فضولهم، وأخذوا يتفرقون وهم يتحدثون فيما بينهم عن هذه المغامرة. وشعرت «تينا» بالضيق عندما غادر آخر رجل الساحة الواسعة، تاركًا إياها وحيدة مع «برانستون». وكانت منذ لحظات قليلة قد لاحظت أن «رامون» اصطحب «أنيز» ليوصلها إلى غرفة نومها، وهنا شعرت «تينا» بموجة من الخوف تطغى عليها، وكانت في شوق شديد إلى النوم المريح، فأدارت عينيها اللتين أغمضهما الإرهاق في اتجاه «ثيو»، الذي قال:

– تعالَيْ نتجول قليلا حول المعسكر قبل النوم يا لعبتي، هناك أشياء كثيرة يجب أن نفعلها، وكلام أكثر يجب أن تسمعيه.

– «ثيو»، أنا آسفة جدًا. أرجو أن تنتظر حتى الصباح فإنني متعبة.

– لا بأس يا حبيبتي.. ولكن ما أريد أن أقوله لك مهم جدًا، ولن يأخذ من وقتك سوى دقائق قليلة.

– حسنًا، ولكن بسرعة. ولم تستطع أن ترى تعبير وجهه في ضوء القمر، ولكنها شعرت به يطلق زفرة ارتياح وهو يقودها في اتجاه الغابة. وتبعته

دون تذمر. كانت تشعر في قرارة نفسها بالشكر له، لأنه لم يختر شاطئ النهر مكانًا للقاء، هناك حيث ذكرياتها المؤلمة، ولكن عندما حاول أن يتجاوز الصف الأول من أشجار الغابة، متوغلا بها إلى الداخل، اعترضت قائلة:

– إن هذا المكان بعيد بما فيه الكفاية. والآن أخبرني بما تريد. ونظرت إليه محاولة أن تخترق هذا الغموض الكئيب الذي يحيط به، وشعرت بالخوف يتسلل إليها عندما رفض أن يجيب عن سؤالها. كان الصمت مشحونًا بالخبث. صمت له معنى بعث الرعب في أطرافها، ودفعها إلى القول:

– «ثيو»، لماذا لا ترد؟ وعندما امتدت يداه ليجذبها بقسوة اكتشفت غباءها وأخذت تلوم نفسها، ولكن بعد فوات الأوان. فقد صمم «ثيو» على أن ينال ما يريد، ودارت معركة طاحنة بين الطرفين حاولت خلالها «تينا» أن تبعد «ثيو»، لكنها ما لبثت أن سقطت أرضًا وغابت عن الوعي. وحاولت أن تتنفس بعمق، نفسًا عميقًا من خلال شفتيها الرقيقتين المتألمتين، وكأنها تسمع أصواتًا آتية من بعيد. سمعت صوت حركة عنيفة وسقوط رأس واصطدامها بالأرض. وحملقت بعينيها المذهولتين، ولم يستطع عقلها أن يدرك ما يحدث، وأن يستوعب هذا المشهد الذي يأخذ مكانًا أمامها..

كان «ثيو» ممددًا، نصف واع، بجانبها بينما وقف «رامون فيغاس» مستعدًا ناظرًا إليه، حتى خلال هذا الضباب الذي يدور في رأسها، كانت «تينا» خائفة من العراك الوحشي الذي يمكن أن ينشب، والذي كان واضحًا من الطريقة التي وقف فيها «رامون» متأهب القبضة بقوة، وكأنه يشتاق إلى الالتحام، منتظرًا حركة من «برانستون».

وتناست «تينا» آلامها وهي تنظر إليه، مذهولة من هذا الغضب الجامح الذي يجتاحه، والذي لم يحاول أن يبذل مجهودًا في إخفائه والسيطرة عليه. ولم يكن هناك شك في رضائه التام وهو ينظر -متوعدًا في صمت- إلى «ثيو» راغبًا في أن يراه واقفًا على قدميه، ومستعدًّا بكل وضوح لأن يمارس معه كل قوانين الغابة القديمة، قوانين الأدغال والقتال الدامي بلا رحمة. لقد تبدل تمامًا هذا الرجل الأرستقراطي حفيد الإسبان، وحل محله رجل مستعد تمامًا لأن يحارب بسرعة وضراوة على نهج القبائل البدائية الأولى.

ورأت «تينا» والرعب يكاد يقتلها، أصابعه وهي تلتوي على رقبة «ثيو» في إصرار، فحاولت أن تطلق صرخة، لكنها لم تنجح إلا في إخافة مجموعة ضخمة من الطيور، أطلقت صرخاتها وهي تطير مبتعدة عن المكان، وصيحاتها تدوي في الفضاء لتزيد من حراجة الموقف. وخلال هذه الأحداث الدامية، خرج صوت «أنيز» صارخة لتزيد من غضب «رامون»:

- «رامون»، لا تفعل ذلك إنك ستقتله. واندفعت إليه، تغرس أظافرها في ظهره، وهي تتوسل إليه أن يهدأ وأن يترك «ثيو» الذي جحظت عيناه في محجريهما، وكان ذلك الدليل الواضح على هزيمته. ووقفت «تينا» واتجهت إلى «رامون» تهتف به:

- أرجوك، أرجوك، لا. وارتعدت ركبتاها، عندما ترك «ثيو»، واستدار إليها بعد أن عرف صوتها، حاولت يائسة أن تبحث عن قوة لتقاوم بها هذا الاتهام الغريب الذي لاح في عينيه، لكنها على الرغم من ذلك شعرت بالسعادة، فمن الأفضل لها أن تعاني اتهامه الظالم لها من أن

تسمح له بالخضوع لعاطفة مدمرة قد تحطمه.

- تتوسلين إليَّ من أجله بعد كل ما فعله، أما زلت تكنين له المودة؟ ليست حياة «ثيو» التي تهمها، إنها تريد أن تعترف بذلك، لكنها تراجعت. أدركت أنه لو عرف أنها تكره «ثيو»، وأنها تخافه، لفلتت أعصابه، وازدادت وحشيته ورغبته في الانتقام، من أجل «رامون» فقط يجب ألا تعترف. وارتعدت وهي تقول:

- كان هناك سوء تفاهم، أرجوك، أرجوك اتركه.. أتوسل إليك.

وتلاشى غضبه، ورأت شفتيه ترتعدان وهو يصارع غضبه حتى يتمكن من السيطرة على أعصابه، وأدارت عينيها بعيدًا عن الاتهام المركز في عينيه. وساد الصمت. لم يقطعه سوى صوت تنفس «ثيو» الثقيل. وترك «رامون» رقبته، وركله بقدمه باحتقار شديد، صائحًا به:

- انهض. وأطاع «ثيو» في الحال وواجهه «رامون» باحتقار قائلا:

- يجب أن تشكر الآنسة «دونيللي»؛ لأنها أنقذت حياتك، أنقذتك من شر ما كان يمكن أن يحدث لك، لكني أعدك بشرفي أنني سأسعى بكل جهدي حتى تكون هذه هي رحلتك الأخيرة، لن تشترك في أية بعثة علمية أخرى طوال حياتك. والآن اغرب عن وجهي بسرعة، قبل أن أغير رأيي وأعود لأنقض عليك. وللم «ثيو» نفسه، وكالشبح اختفى في الظلام.

وشعرت «تينا» بالارتياح بعدما انتهت المعركة الرهيبة. وكادت زفرات الراحة تنطلق من بين شفتيها وهي تحاول مبارحة المكان، غير أن «رامون» تحول إليها مسرعًا ليقبض على كتفيها وهو يطلق لعنات بلغته الإسبانية ثم أجبرها على مواجهته، واقترب كثيرًا من أذنها، وهمس لها:

– أرجوك، أخبريني. قولي إنني مخطئ في إحساسي بشعورك نحوه. قولي وستريْن ما أفعله انتقامًا منه لما فعله بك.

– لا. لا تفعل شيئًا. وشعرت به يتجمد في مكانه، وانحنى يرمقها بنظراته الحادة، باحثًا في وجهها الشاحب عن تعبير يُكذب ما تقول. وواجهت نظراته بشجاعة، على الرغم من صرخة الألم التي كانت تمزق قلبها، والتي كادت تفلت من بين شفتيها، لكنها استطاعت أن تستعيد قناع البرود وترسمه على وجهها ليخفي مشاعرها الحقيقية تجاه صمته المتسائل. وبعد لحظات ثقيلة طويلة، سقطت يداه إلى جانبه وخطا خطوة مبتعدًا عنها، وكان هيكله المتوتر وهو يتحرك مبتعدًا يكاد يختفي عن ناظريها وراء الدموع التي ملأت عينيها. وكادت تسقط على الأرض. لم تعد تحتمل جسمها إزاء آلام قلبها الذي يتمزق شوقًا إليه وخوفًا عليه. حتى أن صوت «أنيز» عندما اخترق الصمت شعرت إزاءه بفرحة الغريق الذي ألقي إليه بطوق النجاة:

– «رامون»، هل تعلم؟ لقد جعلت من نفسك غبيًا كبيرًا، نعم في منتهى الغباء!

– كيف؟ ومن الذي جعلني غبيًا؟

– علمت أخيرًا أن الآنسة «دونيللي» خدعتك، إنها ليست كما تعتقد «كريستينا دونيللي» المكتشفة المعروفة، وإنما هي ابنة شقيقها، متنكرة باسم عمتها، وأنا لم أهتم بأن أعرف السبب، لكني أعتقد أنك ستهتم بذلك طبعًا، أليس كذلك يا «رامون»؟ إنه «ثيو» ولا أحد غيره يمكن أن يفشي سرها. إنه الوحيد الذي يعرفه. لقد كانت غبية وجاهلة عندما أطلعته على حقيقتها، وهو لم يكن في أي وقت من

الأوقات جديرًا بثقتها. وقفت في مكانها بلا حركة، وأبعدت عينيها بعيدًا عن «رامون» الغاضب، وانتظرت رد الفعل وشعرت بالأسف؛ لأنها لم تستطع أن تثق به عندما كانت الفرصة سانحة، ولأن الظروف اضطرتها إلى خداعه، هو بالذات. والأسف الأكبر والأعمق؛ لأن «أنيز» هي التي أمدته بهذه المعلومات وكشفت سرها أمامه. وشعرت بأنها على وشك الإغماء، وارتعدت تحت نظرات «أنيز» الحافلة بالكراهية والاحتقار التي تصبُّها عليها، وهي تقف في عظمة تنتظر نتيجة انتصارها. وفقدت «أنيز» صبرها. وقالت:

– «رامون».. هل سمعت ما قلته لك؟ إنها ليست «كريستينا دونيللي»، وربما لم تضع قدمها في الأدغال من قبل، باختصار إنها كاذبة، ومزيفة. وفجأة تحدث «رامون»، بصوت ناعم، غير متوقع:

– «أنيز»، من أين حصلت على هذه المعلومات؟ هل يمكن أن تخبريني؟

– هل هذا أمر مهم؟

– نعم. أعتقد ذلك!

– أخبرني «ثيو» بذلك، وفي الحقيقة أنا مندهشة من سؤالك، إنك تعرف أنه الوحيد الذي نال ثقة الآنسة، فهل كنت تحتاج إلى السؤال؟

– هل أفهم من ذلك أنكما أصبحتما صديقين خلال غيابنا؟ وظهر القلق واضحًا على «أنيز»، فرمته بنظرة غاضبة وقالت:

– شبه صداقة فقط، ولكن ليس إلى الدرجة التي تدعوك إلى الغيرة، كنا طبعًا نشعر بالوحدة والهجر، فكان طبيعيًا أن نتقارب قليلا.

– إذن، أرجوك أن تبلغي صديقك أن هذه المعلومات الثمينة التي أتيت

لتنقليها إليَّ لم تكن مفاجأة، لقد كنت أعرفها معرفة تامة، إنني لست غبيًّا ولا جاهلا، وإذا كان «برانستون» فضوليًّا ويريد أن يعرف المصدر الذي استقيت منه معلوماتي، فأرجوك أن تخبريه بأن مصدري كان الآنسة «دونيللي» شخصيًّا!

- 10 -

جلست «تينا» في مقعدها، وقد اتخذت وضعًا مريحًا في السفينة المحلقة التي بدأت المرحلة الأخيرة من رحلة العودة، وكانت قد بدأت تستريح من المعاناة التي واجهتها خلال الأيام القليلة الماضية. فها هي تقترب من نهاية الرحلة، وبدأت أعصابها تهدأ كلما فكرت في أن الحرب التي خاضتها انتهت ولعل نهايتها كانت في اللحظة التي أعلن فيها «رامون» أنه يعرف حقيقة شخصيتها. حاولت «تينا» مرارًا أن تقترب منه، أن تقدم له تفسيرًا، لكنه كان يرفض الاستماع إليها. وعندما كانت تقف في مكان واحد معه، وتبدأ في الحديث، كان يعتذر برقة ولطف باضطراره إلى الانسحاب لانشغاله بأمور أخرى، وبالتدريج اقتنعت «تينا» بأنه يرفض أن يستمع إلى أي دفاع تحاول أن تبديه أمامه.

وكثيرًا ما تساءلت «تينا» عن السبب الذي دعاه إلى الوقوف بجانبها ضد «أنيز» في تلك الليلة، لكنها لم تستطع، وأدركت أنها لن تتمكن حتى في المستقبل من أن تشبع فضولها وتعرف لماذا أطلق هذه الأكذوبة الواضحة.

وتذكرت «تينا» كيف واجهت «أنيز» هذا الموقف: لم تكن الدهشة هي التي انطبعت على وجهها، وإنما سلسلة من المشاعر والانفعالات، ولعل

أكثرها وضوحًا تعبير الشك الأكيد.

ولولا أن الأخوين «بريكلنغ» اقتحما حياة «تينا»، وحاولا أن يملآ فراغها، ولا سيما بعد أن اختفى «برانستون» عن أنظارها، لولا ذلك لشعرت بالبؤس والوحدة، وقد ساعدها على الاندماج في صحبتهما أنها لم تكن تحتاج إلى تبادل الحديث الكثير معهما، فقد كان عدم إلمامهما باللغة الإنجليزية سببًا في أن يكتفيا منها بابتسامة أو إيماءة من رأسها، تشعرهما بأنهما نجحا في تسليتها.. ولم يكن غيرهما يصلح لأن تكون رفيقة له خلال هذه الفترة. فالأخوان «بريكلنغ» لم يعرفا أن صمتها وسكونها سببهما تلك الأحزان العميقة التي ترسبت في أعماقها، وإنما تصورا أن ذلك راجع إلى عدم قدرتها على تبادل الحديث معهما، أما الأفراد الباقون فكانوا يشعرون بكل تأكيد بأن هناك شيئًا غير عادي حدث، وكان كل منهم يحاول بكل طاقته أن يتجاهل ما حدث، وأن يغرق نفسه في العمل، ويتظاهر عندما يتحدث إليها أنه لا يلاحظ هذا الأسى الجامح الذي يرتسم على فمها الحزين.

لم يعد يفصلها عن «مانوس» المحطة النهائية في رحلتها سوى ساعات معدودة، ساعات قليلة باتت تفصلها عن الحرية. وبدأت الأحاديث تهدأ شيئًا فشيئًا كلما سارت السفينة في رحلتها وقد جلس أعضاء البعثة جميعًا في أماكنهم، كل منهم يناقش بينه وبين نفسه، النتائج الطيبة التي توصلوا إليها في أبحاثهم. ويبدو أن «تينا» كانت قد استغرقت في النوم، عندما شعرت بيد تهزها من كتفها، فاستيقظت في الحال، لكنها لم تسترد وعيها كاملا، طافت بعينيها فيما حولها وهي تشعر بأن هناك شيئًا ما ناقصًا في الجو المحيط بها. وأخذت تفحص المكان باحثة عن

هذا النقص الذي تشعر به إلى أن أشار «لارس بريكلنغ» برأسه الأشقر إلى الشاطئ وهو يبتسم. وهنا أدركت أن ما كانت تشعر به إنما هو صوت هدير السفينة الذي صمت. لقد وصلوا وارتفعت الضحكات، وتبادل الجميع التهاني، وهم يسارعون في النزول إلى الميناء. ولكن قبل أن يتحركوا في طريقهم إلى الفندق، وقف «رامون» على سور السفينة وأشار إليهم بيده طالبًا منهم الانتظار، وابتسم وهو يخاطبهم:

- لا أريد أن أعوقكم عن التمتع بالمدينة، لكني أريد أن أذكركم بأن الفندق يقيم هذا المساء حفلا خاصًا للعشاء احتفالا بنا. أرجو ألا ينسى أحدكم نفسه في الفراش المريح ويتخلف عن الحضور. وبما أن جميع الرجال الرسميين في المدينة تقريبًا سوف يحضرون الحفل فأرجو أن يكون الحضور بملابس السهرة..

شعرت «تينا» بالخوف، من هذه الفترة التي ما زالت باقية أمامها، والتي ستكون مضطرة فيها إلى رؤيته ولقائه. إنها لم تكن تريد هذه الدعوة، لأنها تشعر بالقلق وتتوقع مزيدًا من الحوادث. لقد تصورت أنها نالت حريتها أخيرًا وأنها لن تشعر ثانية بوجوده، ولكن ها هي ذي مضطرة إلى الجلوس معه في حفل واحد، وسوف يكون عشاءً طويلا وعذابًا آخر تعانيه، كل نظرة منها سوف تلتقي بنظراته العميقة الزرقاء. وسوف تجد قلبها يذوب في مكانه، سيعصره الألم والأسى.. يجب أن تجد حلاً، لماذا لا تدّعي الإصابة بالصداع؟ نعم الصداع هو الذي سيخلصها من هذا المأزق، ولن تكون كاذبة، فهي تشعر بالفعل بآلام حادة في رأسها، وبأن معدتها تتقلّص عند التفكير في الطعام.

وحينما وصلت إلى الفندق، كان الصداع قد وصل إلى درجة لا تحتمل،

وكانت غرفتها في الفندق، بما تحتويه من تكييف الهواء والنوافذ الخضراء الهادئة والفراش المريح، هي الأمل الذي ترجو أن تصل إليه في هذه اللحظة. وعندما أغلقت عليها الباب، نظرت إلى حذائها الصغير القذر، قبل أن تتمدد على الفراش وأغلقت عينيها طلبًا للنوم، لكن النوم رفض أن يستجيب لها، وحاولت أن تزيح كل الأفكار الكئيبة من ذهنها. لكنها، وعلى الرغم من كل محاولاتها، وجدت نفسها تتوه مع أفكارها مسترجعة أسعد يوم من أيام حياتها، تلك الليلة الخيالية في قلب غابات «الأمازون» و«رامون» يروي لها بصوته الجذاب كل شيء عن حياته، عن آماله وأحلامه، وطار بها الخيال ليتركز في اللحظات التي دعاها فيها إلى أن تقص عليه حياتها وطفولتها وكل ما يحيط بها، وكيف كذبت عليه، رغبة منها في أن تبعد عن نفسه أي شك في حقيقتها. تُرى كيف كان «رامون» سيتقبل منها الحقيقة لو أنها صارحته بها في تلك اللحظات؟ هل من المعقول أنه كان يعرف أنها ليست «كريستينا دونيللي» الحقيقية، وأنه كان يستدرجها ليقودها إلى الاعتراف؟ ولكن. لا. وقاومت هذه الفكرة بشدة. لم يكن ذلك معقولا، ما هو معقول أنه كذب على «أنيز»، فمن أين كان له أن يعرف السبب الحقيقي؟ إنه حاول أن يظهر أمام «أنيز» بمظهر الرجل الواثق بنفسه، الذي يعرف كل شيء وليس الشخص الذي يمكن لأحد أن يخدعه، ما من رجل على الإطلاق يرضى لنفسه بأن يظهر في صورة من كان غبيًا، ولا سيما أمام المرأة التي ينوي أن يتزوجها.

وشعرت بالضيق من نفسها، فهي تحن إلى رجل لا يكاد يشعر بوجودها، وقررت أن تهرب من أحزانها بأن تشغل نفسها بأي عمل إيجابي، أن

تأخذ حمامًا لعله يساعدها على النوم. ولكن بدلا من أن يجلب لها هذا الحمام الفاخر الدافئ النوم، إذ به يكفل لها درجة من الراحة لا يمكن بعدها أن تطلب المزيد، فأخذت تدور في غرفتها، ثم عبرت الغرفة لتقف أمام الخزانة التي تضم ثوب السهرة الوحيد الذي أحضرته معها، والذي أصرت عمتها «كريس» على أن تأخذه في رحلتها مع ملابسها. كان ثوبًا فاخرًا جميلا، يصلح لحفلات الكوكتيل والسهرة.

ذهلت عندما سمعت نفسها تضحك. لقد كان الصوت غريبًا، بحيث شعرت بأنها لم تسمع هذا الصوت يتردد في داخلها منذ مدة، إن منظر «رامون» مع «أنيز»، وطريقته في رعايتها ومداعبتها، وضع حجرًا ثقيلا على قلبها، وقتل المرح في روحها، لكنها كانت ما زالت في العشرين من عمرها، في عنفوان الشباب، وبدأت طبيعة هذه المرحلة المرحة من العمر تعاودها. الآن ذهبت عنها آلام الصداع وذهبت معها رغبتها في النوم. وإلى جانب هذا بدأ نداء غامض في أعماقها يجذبها إلى قضاء الليلة الأخيرة -ليلتها الوحيدة الباقية- في صحبته فستكون ذخيرتها في ذكرياتها إلى آخر العمر وغمرتها الفرحة. يجب أن تجعل هذه الليلة ليلتها الأخيرة حقًا، مع الرجل الوحيد الذي أحبته. يجب أن تذهب وتترك كل شيء للقدر.

قبل الساعة الثامنة، وهو الموعد المحدد للعشاء، كانت «تينا» مستعدة تمامًا، لكنها لم تستطع أن تواجه المجتمعين، وتنزل وحدها إلى القاعة لتتناول المرطبات قبل العشاء، فقد ترددت طويلا، ودارت حول الغرفة عشر مرات، ثم سمعت طرقًا على الباب، وصوتًا يقول:

- «تينا». هل أنت مستعدة؟ أسرعي، إن الجميع في انتظارك. وبسرعة

أمسكت حقيبة السهرة في يدها، وأسرعت تفتح باب غرفتها فوجدت «فيلكس كريللي» واقفًا وقد أمسك في يده صندوقًا صغيرًا فيه بعض الورد، ولكن عندما مد يده بحرارة إليها مقدمًا الباقة، تدلى فمه من الدهشة، وحتى الكلمات التي كان قد أعدها ليحييها ويرحب بها، ابتلعها وسط دهشته بينما وقفت «تينا» صامتة حتى تتبدد دهشته، وأحست بالرضا الآن، فقد تأكدت أن تأثيرها سيكون كما تريد تمامًا، ولم تشعر بالقلق للدهشة التي أصابت «فيلكس»، فمن الطبيعي أن يحدث له هذا وقد اعتاد أن يراها في ملابس الرجال الخشنة، طوال الأسابيع الماضية. ثم بدأ ينتقل بعينيه من شعرها إلى جسمها الرشيق وثوبها الرقيق، حتى استقر على حذائها الذهبي، فسألته منفعلة:

- ما رأيك؟ هل أبدو جميلة؟

- عزيزتي «تينا». إنك ساحرة، إنني أموت شوقًا إلى النزول معك إلى السهرة، لأرى الرجال جميعًا وهم يسجدون بين قدميك! وكانت سعادة «فيلكس» لا توصف، بعدما قابلته الجموع بهذه العاصفة من الدهشة والإعجاب. كان الرجال يجلسون، وهم يتحدثون بكسل واسترخاء، عندما شد انتباههم منظر «تينا» وهي تقف بالباب متعلقة بذراع «فيلكس كريللي»، وارتفعت صيحات الإعجاب، كل بطريقته، لكنها كلها كانت تعبر عن الدهشة الممزوجة بالفرحة. وخلال حرارة اللقاء، أجالت «تينا» نظراتها في القاعة، وعندما تأكدت أن «رامون» و«أنيز» لم يظهرا بعد، بدأت تستريح، واندمجت تمامًا مع الجميع في التمتع بعبارات الإعجاب التي لم تكن مألوفة منهم. واستطاع الإعجاب أن يعيد ثقتها بنفسها إلى درجة كبيرة، حتى أنها عندما ظهر «رامون»

ورفيقته، قابلت ظهورهما بأعصاب هادئة تمامًا، أكثر مما توقعت.
كانت «أنيز» متألقة بثيابها الرائعة. لكن دخولها لم يحدث الأثر الذي أحدثه دخول «تينا». وعندما وقعت عيناها على «تينا» لمعتا أكثر من أي شيء آخر. فرمقتها بنظرة من أعلى رأسها إلى أسفل قدميها، بغضب جعل شفتيها تنقبضان كالخط الرفيع، قبل أن تستدير وهي تلعنها في سرها. وازدادت ثقة «تينا» بنفسها، واستدارت تبحث عن «رامون»، نظرت إليه، لكنها كادت تجري هاربة من الغرفة، عندما قابلها بنظرة باردة، ثم استدار بظهره إليها ليستمع بانتباه إلى الحديث الذي كانت «أنيز» تردده. وطبيعي أنها ابتلعت أساها في حلقها، ولم تحاول أن تظهر الألم الذي يعصر قلبها، لكن الرجال – الذين لم يكونوا بالجهل الذي تتخيله – أحاطوا بها، بتعاطف صامت وأخذوا يتنافسون في محاولات للتغلب على الحزن الذي يبدو في عينيها. بدأت أحاديثهم وتعليقاتهم المرحة تمنع أي حزن من التغلغل في أعماقها طوال العشاء والفترة التي سبقته.
كانت «تينا» تراقب حلبة الرقص بعين وترمق «رامون فيغاس» و«أنيز» بين الفينة والأخرى بالعين الأخرى. عندما سمعت صوت «ثيو» يفح:
– أخيرًا.. وصلت إليك. تعالي، أريد أن أرقص معك. كان يترنح حتى وهو يتحدث. وجذبت «تينا» نفسها بعيدًا وقالت باحتقار:
– لكنني لا أريد أن أرقص معك. لا أريد حتى أن أتحدث معك. اذهب بعيدًا أرجوك، واتركني وحدي. لكن كلامها جاء متأخرًا. لقد أثاره حديثها، وكأنما ذكرته كلماتها بهذه المشاعر المهينة التي يعانيها منذ هاجمه «رامون». وكرجل في مثل ظروفه ومكانته، رجل يعرف أنه هزم

وأنه أصبح معروفًا بالجبن، كان ذلك كله عذرًا كافيًا لتلمس معركة يسترد فيها كرامته وتصور أنه يستطيع أن يستميل «تينا»، ويستعيد مكانته عندها ببعض الكلمات الهادئة، ولكن نظرة الاحتقار التي حدجته بها، واعتراضها الحاد على الرقص معه، حوله فجأة إلى وحش كاسر فجذبها بعنف إلى حلبة الرقص، وقبض بشدة على جسدها بين يديه.. ولم تستطع أن تفعل شيئًا، اكتفت بأن أخذت ترسل بنظراتها إلى المنضدة التي يجلس إليها الرجال، في طلب النجدة، وهم لا يعرفون بما حدث لها؛ إذ كان بعض الغرباء يفصلون بينها وبينهم، فلم يتمكن أحد من رؤيتها، فلم تجد أمامها من سبيل غير أن تضغط على شفتيها بقوة حتى لا تنطلق منها صرخة، ولكنهما لم يرقصا أكثر من خطوتين، عندما سمعت صوتًا ثلجيًا غير متوقع يتجه إلى «ثيو»:
– «برانستون»، سآخذ مكانك، الآنسة «دونيللي» ستكمل هذه الرقصة معي. ولم تستطع «تينا» أن تفهم قط كيف حدث هذا، لكن في لحظة خاطفة وجد «ثيو» نفسه محاصرًا بمجموعة من الرجال الغاضبين، قرروا أن يخلصوها من صحبته. ولم يشعر بنفسه إلا وهو ينسحب، قبل أن يرد أو يشعر أحد من الراقصين بما حدث! اقتاد «رامون» «تينا» إلى ركن منعزل في حلبة الرقص وقال:
– هل يجب أن تلعبي بالنار دائمًا؟ ألم تتعلمي بعد أن «برانستون» ليس هو بالرجل الجدير بالثقة؟ ورفعت رأسها إليه: هل يتصور أنها هي التي تبحث عن صحبة «برانستون»؟ لقد ظهر منها بوضوح أنها لم تكن تريد أكثر من أن تبتعد عنه. إنها تحتقره وتخاف منه، فتحت فمها لتعترض على تصوراته لكن كلماتها ماتت على شفتيها عندما التقت

عيناها بعينيه، ورأت هذا الغضب المتفجر، إنها لم تره قط من قبل في مثل هذا الغضب.

وانتهت الموسيقى فجأة بمعزوفة جميلة، وكالمخدرة لم تبد أي استعداد للمقاومة عندما قادها بإصرار عبر باب النافذة الفرنسية في طريقه إلى الحدائق الخالية. ولم يتوقف حتى أصبحا بعيدين عن الفندق، ولم تعد الموسيقى تسمع إلا من بعيد. وفي الظلام، وبين الأشجار الكثيفة التي تصنع دغلا أسود لا تظهر فيه غير السترة البيضاء التي يرتديها، وقفت بأنفاس متقطعة في انتظار غضبه الجامح أن يندلع. ولم تنتظر طويلا، فقد قال لها آمرًا، بصوت غاضب:

– أعتقد أنك تعرفين الآن النتائج السيئة لتصرفاتك الحمقاء. يجب أن تتصرفي بحكمة أكثر، وأن تتجنبي إغراء كل رجل يقابلك. تعبت من المحاولات الدائمة لإنقاذك من المآزق الحرجة التي توقعين نفسك فيها ولا تستطيعين النجاة منها. وأقترح عليك أن تتركي فن الإغراء للنساء الأكبر سنًا اللواتي يستطعن كبح جماح العاطفة في الوقت المناسب.

– إغراء؟ ولكن أنا لم أكن... أوه كيف تجرؤ؟! ووقفت على أطراف أصابعها، لا تجد كلامًا تعبر به لتقول إن تصرفات الرجال هذا المساء كانت تحمل رقة طبيعية. كانت متأكدة أن اتهاماته لها ليست إلا نوعًا من الانتقام من الاتهام المماثل الذي سبق لها أن وجهته إليه. وعندما أدركت ذلك هدأت قليلا، وهي تستطرد:

– إن إشاراتك لها مغزى عميق يا سيد. الآن استطعت أن أفهم العلاقة القائمة بينك وبين «أنيز». إنك تشعر بالأمان معها، فأنت متأكد أن تصرفاتك كلها مقبولة ومفهومة ونتائجها لا خوف منها. وعندما انتهت

من الكلام، شعرت بالخجل فوقفت في انفعال وشوق إلى معرفة رد الفعل القاسي لكلماتها الجارحة. لكن الذي أربكها أنه أجابها برقة شديدة، حتى أن التهكم الذي صوبه في كلماته، لم تستطع أن تدركه إلا بعد قليل:

– «أنيز»؟ طبعًا، أوافقك على ذلك. ثم أحنى رأسه نحوها، وأردف:

– إنها ليست طفلة تتخفى في ثياب امرأة. وقفزت روحها إلى حلقها، كان ظله يغمرها، وانعكس الألم الذي تعانيه في الكلمات التي صدرت عنها في الظلام:

– حاولت أن أخبرك، لكنك لم تكن تريد أن تستمع.

– كان يجب أن تخبريني في الغابة عندما حاولت أن أجعل الاعتراف سهلا بالنسبة إليك.

– هل كنت تعرف حقًا، وكنت تقول الحقيقة لـ«أنيز»، ولكن كيف؟

– أنا لا أكذب أبدًا. إنني أترك الكذب لك، فأنت خبيرة به.

– لكنك كذبت فعلا. أخبرت «أنيز» بأنني أنا التي أطلعتك على الحقيقة، وهذا ليس صحيحًا.

– ألا تعرفين شيئًا عن هذه الكوابيس التي تهاجمك في نومك؟ وشعرت بالحيرة إزاء هذا السؤال الغامض. وانتظر ردها صامتًا، ولكن عندما بادلته نظرته بنظرة حائرة بدأت عاصفة الغضب في نفسه تهدأ قليلا. وقال:

– في الليلة التي كنا فيها في قرية «جواهاريبوز»، هاجمك كابوس في نومك. وقد استيقظت على صراخك، كنت تستنجدين بأبيك، وعندما حاولت أن أعيد إليك الهدوء، بدأت تتحدثين عن طفولتك وخوفك من الأدغال وقلت

لي كل شيء، والأسباب التي دفعتك إلى القيام بهذه الرحلة والأسباب التي دفعتك إلى خداعي. ووقفت جامدة وتذكرت الطمأنينة التي غمرتها في تلك الليلة من الصوت الرقيق، واليدين الحانيتين. كانت تتصور أنه حلم فحسب، وتذكرت القبلة التي تلقتها على رأسها، والتي عاشت في ذاكرتها. الآن فقط أدركت كل شيء لقد كانت قبلته هو التي انطبعت على جبينها! وأضاف «رامون»:

– من أجل هذا، قررت أن أحترم قرارك، لكني كنت أتمنى أكثر من أي شيء آخر، أن تخبريني بإرادتك وحريتك بما أخبرتني به وأنت في غير وعيك. كنت أريد أن أشاركك في حمل هذا العبء وأن أساعدك في محنتك التي كنت بلا شك تعانيها، ولكن، بدلا من ذلك، فضلت أن تغلقي الباب في وجهي. بل واتهمتني بأنني أحاول أن أحتل مكان رجل غائب. نظرت إليه فجأة، واستغربت نظرات الحزن هذه التي تغمر عينيه الزرقاوين ودون أن تشعر، وبغير تفكير، قالت وهي لا تستطيع أن تواصل التنفس:

– «رامون».. لا.. لا... ورفعت يدها، لتزيح برقة هذا الألم الذي تجمّع على شفتيه. وكانت لحظة مثيرة فقد وقف مكانه بلا حراك. وعندما أفاقت إلى نفسها فجأة، احمر وجهها، وحركت يدها بعيدًا، ورد عليها بأن جذبها بين ذراعيه. وأحست بأنها يجب أن تقاوم، لكن من أين لها الإرادة؟ تذكرت أن هذا الرجل سيتزوج «أنيز»، وأنها لن يكون لها في حياته غير دور ثانوي فحسب، ولكن التحذير لم يصادف صدى في نفسها وعلى الرغم من أنه جرح قلبها، فإنها كانت تفكر في أن هذه هي ليلتها الأخيرة ويجب أن تستمتع بها إلى آخر دقيقة.

وهكذا تعلقت به، كانت تتمنى بكل جوارحها، لو أن العالم ينتهي قبل

أن تفارقه، ولكن بعد فترة قصيرة، أبعدها عنه، ونظر إليها بوجه شاحب ومرتعد وقال:

– يجب أن نتكلم. وكان يرتعد بعنف ظاهر وهي تواجهه:

– إنني لا أستحق العقاب مرة أخرى. يجب أن أعرف أين أقف بالضبط. لقد تبادلنا التحديات مدة طويلة والآن يجب أن أعرف حقيقة شعورك بالنسبة إلى «برانستون»، أخبريني بصدق أرجوك يا «تينا». حقيقة أنني أحبك بعنف، ولكن ذلك ليس معناه أن أتنافس معه من أجلك.

– أنت تحبني؟

– ولماذا – في رأيك – سمحت لك بالاشتراك في هذه الرحلة؟ لم أكن أؤمن قط بهذا الذي يسمى بالحب من النظرة الأولى، لكني منذ لاحظت أنك تحاولين إخفاء بساطتك وقلقك، وراء محاولتك الظهور بمظهر الشخص الشديد الثقة بنفسه، وعندما سمعتك تتحدثين بغطرسة عن موضوع كان من الواضح أنك لا تعرفين عنه أي شيء، وحتى عندما حاولت تشويه سمعتي وتنتقصين منها، كنت قد وقعت أسيرًا لشجاعتك، وروحك المشاغبة، وحاولت أن أقنع نفسي بأن هذا غباء مني، لكن كان يجب أن أعرفك أكثر، ولذلك تركتك تعتقدين أنك استطعت خداعي، لأحتفظ بك قريبة مني ولكن.. وتغير وجهه وهو يستطرد:

– لقد تحولت الرحلة لتصبح جحيمًا، أعلنت عن شخصيتك الحقيقية لـ«برانستون»، وفضلت صحبته، حتى عندما كنا في يومنا الأخير عند طبيب الأعشاب، وعندما بدأت أشعر بأنني أخيرًا استطعت الحصول على جزء من ثقتك، اتهمتني بأنني أحاول احتلال مكان «برانستون». وصرخت «تينا» صرخة ألم، وهي تستنكر كلامه:

- «رامون» لا، حاولت فقط تذكيرك بـ«أنيز».

- «أنيز»، وما دخل «أنيز» بيننا؟

- أخبرني «ثيو» بأنها خطيبتك، وأنكما ستتزوجان بعد العودة من الرحلة.

وساد الصمت بينهما، وكل منهما يحاول أن يدرك سوء التفاهم الذي فرق بينهما... وعندما نظر «رامون» إلى وجه «تينا»، اندفع شعاع من الضوء يشق السحاب الأسود الذي ملأ قلبه وطغى على عينيه، وقفز قلبها فرحًا وهو يقول بحنان:

- قررت ألا أتزوج غيرك إذا كنت تريدينني. ولم تتردد فقالت:

- إنني أكره «ثيو».. كرهته دائمًا، لكني كنت أخاف منه، كان يهددني، وكنت أخشى أن أراك تحتقرني، إني أحبك يا «رامون» ولم أحبب سواك. وفجأة، أخذت الآلام والأحزان تذوب في فيضان من لهيب المشاعر الذي اجتاحهما وحولهما إلى شخص واحد. وذابت كل الشكوك، بعد أن انفتحت أبواب الأشواق المغلقة لتنطلق من عقالها عارمة، تزيح كل شيء أمامها. وبعد فترة، رفع رأسه لينظر إلى وجهها ويسمعها تقول:

- «كارامورو»، إنني أحبك إلى الأبد.

تمت بعون الله